مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الجاثية

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الجاثية

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

ابتدأت سورة الجاثية بِمِثْلِ ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم. كما تماثلت افتتاحيتها بسورة غافر، وسورة فُصِّلَت، وسورة الشورى، وسورة الزخرف، وسورة الدخان. وكذلك بما بعدها، من سورة الأحقاف. فبدأت بقوله تعالى ﴿ حمٓ ﴾ وهما حرفان من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام حرفين من الأحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلْتمس فوائده. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر.

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[1] ومن فوائد الحروف المقطعة شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[١] مما يبين أن من أوجه البدء بها هو لشد الانتباه والأذهان لما بعدها من البيان، لما في ذلك من التشويق للمتابعة.

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٢] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله سبحانه وتعالى سورة الجاثية بحرفين من الحروف المقطعة بقوله عَزَّ وجل ﴿ حمٓ ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، وبما يثبت أنه من عند الله العزيز الحكيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، أوضح الله تبارك وتعالى بعد ذلك بأن كتابه القرآن العظيم صادر ومُنَزَّلٌ منه سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فابتدأ البيان بتقرير نزول القرآن الكريم أنه من لَدُنه سبحانه وتعالى العزيز الحكيم ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فإن مصدر كتاب الله تعالى القرآن الكريم هو من الله رب العالمين، المتصف بالعزة والحكمة. بما يفيد النفي التام والقاطع من أن يكون كتاب الله القرآن العظيم من عند غيره سبحانه وتعالى، وأنه هو المتصف بالعزة والحكمة ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فهذا بيان أيها الناس من ربكم عَزَّ وجل بأن مصدر القرآن الكريم ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ من غير شك ولا ريب ولا مرية في ذلك. وبالتالي فلا يستطيع أحد من الخلق ولو اجتمعوا أن يأتوا بمثله، وبهذا ظهر كمال الإعجاز، وأصبح ذلك آية عظيمة على أن القرآن كتاب الله تعالى، بلا شك ولا ريب. ومن له كمال العزة والحكمة فإنه مُتَفرّد بما يكون منه، ولن يستطيع أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله، أو بشي من مثله ولوكان بعضهم لبعض مناصراً وظهيرا.

وقد أشار تبارك وتعالى إلى القرآن العظيم بقوله عَزَّ وجل ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: أن القرآن الذي أنزله ربكم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو كتاب الله سبحانه وتعالى. وجاء لفظ الكتاب مفرداً

---

(١) المرجع السابق (١/١٠٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٧)

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ليفيد جنس الكتاب. بحيث إذا أُفرد الكتاب فلا دلالة له إلا على القرآن الكريم. بما يدل على دقته وكمال إعجازه وكمال صوابه وحجته وبيانه وأحكامه، وأن ليس في أحكامه شيء من الظلم ولا الحيف ولا الشطط، ولا النقص، بل كمال العدل، وأن قصصه وأخباره وأمثاله ومواعظه خالية من الزيف والكذب، بما يثبت بذلك أنه صِدْقٌ وحقيقة من عند الله تعالى.

ومن دقائق البيان الكريم أن نفي الشك والريبة، وذلك بحصره في أنه من لدنه تبارك وتعالى وليس من غيره ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فهو ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ لينفي به كل شك، ويحصر إنزاله له ومنه تبارك وتعالى، مبيناً وموضحاً قوته وعزته وحكمته، فقال تعالى إن ربكم هو المتصف بكمال العزة ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يريد محاربة كتاب الله تعالى، القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة. والصفة الثانية: ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير، مما يدل على أن القرآن الكريم كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى. كما يفيد ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

كما يفيد هذا الإعلام بهاتين الصفتين: التحذير أيضاً لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، فإن حكمة الله تعالى في معالجة الأمور تُسقط أهل الشر فيما يدبرون من الشر لدينه وأهل دينه. فإن أمرهم مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيدهم في نحورهم، ووبالاً عليهم. وأنه العزيز الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. فاحذروا عزته وحكمته بطاعته عَزَّ وجل.

وقد أكد بأسلوب المبالغة أنه سبحانه وتعالى هو العزيز الحكيم ﴿ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فإنه عزّ وجل هو العزيز لا غيره ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فقد حصر سبحانه وتعالى تنزيل الكتاب منه وحده لا شريك له، كما أن له كمال العزة والحكمة. وقد أفادت بُنية ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته.

فهو المبالغ في عزته وحكمته. فله العزة المطلقة، وكذلك فهو ﴿ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ فله الحكمة المطلقة. فمن كانت هذه صفاته العظيمة، فإنه يستوجب الرهبة من عزته وقوته وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الإذعان لكمال حكمته، سواء عَلِم بها العبد أو لم يعلمها. وكذلك الرغبة في رحمته التي منها إنزال الكتاب، القرآن العظيم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هداية وحجة لمن يصدق ويؤمن به. فالحمد والشكر على نعمائه سبحانه وتعالى.

وبهذا أبطل تبارك وتعالى الشك بتقرير الحق في نزول القرآن الكريم، بأنه منه سبحانه العزيز الحكيم، وأفاد هذا البيان عن عزته وعلمه وحكمته سبحانه وتعالى، وأن له كمال العناية بكتابه القرآن العظيم، وأنه ليس محلاً للطعن، وأن هذا القرآن مُنَزَّلٌ ممن له كمال العزة والعلم والحكمة على رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم. فلا ريب ولا شك في أنه من عند الله عَزَّ وجل. فَنَفَى بهذا البيان عن القرآن جميع طُعُون الطاعنين، ممن طعن فيه زوراً وبهتاناً، وممن كذَّب به، ورماه بما لا يليق به، فنفى عنه بهذا الإعلام القطعي الشعر، والسحر، وأساطير الأولين، وسجع الكهانة. وكَذَّب بذلك جميع مفتريات المفترين، وطعون الطاعنين، وأثبت مصدره أنه من لدنه عَزَّ وجلا، العزيز الحكيم.

ثم يتابع عَزَّ وجل توجيهاته الكريمة في بيان آياته وبراهين ألوهيته وملكه وتدبيره ووحدانيته سبحانه وتعالى، فيستمر البيان ويَتَوَسّع من الله تعالى في لفت أفكار الْمُخَاطَبين إلى ما في خلق السماوات والأرض من الآيات الدالة على ربوبيته وألوهيته، وملكه وتدبيره. فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فإن من نظر بعينه وبصيرته في السماوات وفي الأرض أدرك الحق. وخص المؤمنين بالانتفاع منها ﴿ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فإن آيات السماوات والأرض حجج ينتفع بها من يصدق بالحق إذا عرفه، وتَبَيَّن له. فالمعتبرون بها هم المؤمنون الذين يتعظون بما يرون من المواعظ، وهم الذين تقبل قلوبهم الحق، وتترك الباطل عند رؤية الآيات الحجج والبراهين، وأما المستكبرون فيمتنعون لِمَا في قلوبهم من الاستكبار. بما يفيد أن في السماوات لأدلة وحجج لقوم يُصدِّقُون بالأدلة والحجج، إذا شاهدوها وعاينوها. فإنها ﴿ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الذين يقبلون الإيمان. وهي تقرر مزيد انتفاع المؤمنين بها، لأن من كان مؤمناً فإنما يزداد بها إيماناً، لأن الإيمان عندهم متقرر لطواعيتهم وتواضعهم للحق. فيكون المعنى ودلالته: أنها آيات لمن قلوبهم تقبل الحق فتؤمن به. وينتفي بدلالتها العصاة، المتطاولون، المستكبرون، الذين يستعصون على الحجج والبراهين مكابرة بأنفسهم عليها، فهؤلاء لا يؤمنون مهما كانت الآيات.

وقد بدأ البيان بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يؤكد ما بعده من بيان، وهو أن في السماوات وفي الأرض حجج كافية لمن أراد الحق ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وبدأ البيان الكريم بالسماء وهي الأبعد للْمُخَاطَبين، ثم تدرج إلى الأقرب لهم، وهي الأرض.

فابتدأ البيان الكريم بالسماء: وهو كل ما ارتفع عن الأرض. فإن من نظر إليها وتأمل ارتفاعها، وتأمل لونها، وتأمل قيامها من غير أعمدة تحملها وثُقلُها، ورأى نجومها، وكواكبها، وما يجري في العلو من الهواء والرياح والسحاب، لأدرك أن هذه العظمة في الخلق دليل على عظمة من خلقها، ولأحدث شأنها في قلوب من تأملها الإيمان بالواحد الديان، وأنه لا إله غيره سبحانه وتعالى، وأنه على كل شيء قدير، ولأوجب ذلك التصديق بما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، وبجميع ما فَصَّلَهُ من أمور المغيبات، وأيقن أن هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم هو كتاب الله العزيز الحكيم.

ثم ذكر تبارك وتعالى الأرض ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ومن تأمل في الأرض وجد فيها ما يبهر العقول من عظيم صنعه سبحانه وتعالى: من الجبال والأودية والسهول والهضاب والأنهار، والبحار، والزروع، وانتشار الحيوانات والدواب في أنحائها، وغيرها من المخلوقات. وكذلك ما خلق سبحانه وتعالى في الأرض من المعادن والمياه والسوائل التي يستخرجها الإنسان من الأرض، أو من باطنها أو سطحها، أو ما هو في قمم أو أكنان جبالها، أو ما يجري فيها من الأنهار والبحار. وفي هذا استثارة الأذهان نحو ما يراه ويسمعه ويحسه ويشاهده الإنسان، ليتعلم منه الحقيقة التي لا ينكرها الْمُخَاطَب. كعظيم التوازن بين ما صنع وأوجد وبين متطلبات حياة الإنسان وحاجاته، بل وحتى ما يستجد في حياته، مع تسخير ذلك للإنسان، فأوجب ذلك عليه اليقين بالواحد الأحد سبحانه وتعالى، وأنه لا إله غيره، وأنه على كل شيء قدير، ولأوجب ذلك التصديق بما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، وبجميع ما فصله من أمور المغيبات. وأيقن أن هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم هو كتاب الله العزيز الحكيم. مما يفيد أهمية التعليم بلفت الانتباه والتذكير، وتفصيل البيان.

ثم تدرج البيان وانتقل مما يحيط بالإنسان من مخلوقات عظيمة إلى التأمل في ذواتهم وأنفسهم، وفيما حولهم من الدواب، فإن في التأمل فيها آيات وحجج ودلائل لمن يوقن بها ﴿ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ وعليكم أن تتأملوا في خلقكم، سواء فيما يتعلق بمراحل نموكم، أو في أصل خلقتكم من مني يُمنى، وما جعل لكم من الحواس التي تلائم أنواع المحسوسات. وما أعطاكم وزودكم اللهُ تعالى به من العقل والنظر والسمع، وجميع الحواس الأخرى التي تعقلون بها الحق من الباطل، والخير من الشر. فلو تفكروا فيها الإنسان

لكانت لهم هداية، ولو تفكروا في مراحل خلق أنفسهم: بَدْأ من النطفة إلى الشيخوخة، وإلى الممات، وتعاقب الأجيال لأدركوا الحق، وحقيقة الحياة، وما تدل عليه من انعدام العبث فيما خلق الله سبحانه وتعالى. فيتقرر بذلك الحق في قلوبهم، بما في ذلك البعث والحساب والجزاء. وأن لكل امرئ بما اكتسب، كما أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم، وما تضمنه كتاب الله القرآن العظيم.

ثم يتدرج البيان إلى أن يتأملوا فيما حولهم من الدواب ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ فانظروا فيما خلق ونشر من الدواب. وهو كل ما يدب على الأرض، من الحيوانات، والحشرات، والزواحف. وقد ورد البيان لها بدلالة البث ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ ليفيد الانتشار الواسع، وليفيد أيضاً التأمل في انتشارها بين أصقاع الأرض، فأينما ذهبتم أيها الناس وجدتموها. أفلا يدل هذا الخلق وهذا التدبير والتوزيع على كمال قدرة الله تعالى؟ أليس في ذلك أدلة على وجوب الإيمان؟ وتوحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاءكم بالكتاب الحكيم العظيم.

ثم يخبر تبارك وتعالى بنوع المستفيدين وأهم خصيصة لهم، فإن هذا الخلق العظيم ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي: حجج وبراهين ﴿لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي: يصدقون بالحق إذا ظهر لهم. مما يفيد أن الذين يكابرون على الحق إذا ظهر لهم، فلا يصدقون به، فإنهم لن ينتفعوا بالآيات والحجج، لأن في نفوسهم استكبار واستعلاء حتى على الحق، فلا يقبلونه. مما يفيد ويبين أهمية التواضع، الذي يتحقق به قبول الحق، وأهمية تربية النفس وتعويدها على قبول الحق والتواضع له.

وفي هذا التتالي بين أن يتبصروا في خلق أنفسهم، وخلق الدواب ما يستثير جانب المقارنة عند التأمل. بما خص سبحانه وتعالى الإنسان من القوة، وجمال الخلقة، والقدرة، والعقل، وحُسن التدبير والتأمل، والقدرة على الابتكار، والإرشاد والاسترشاد، وبين الدواب التي لا تفهم ما يفهمه الإنسان، والتي سخرها سبحانه وتعالى للإنسان، والتي يستقوي عليها بقوة عقله. كما يستدعي ذلك أيضاً مزيد التأمل: سواء في ذواتهم، أو في جنس الإنسان عموماً، من كمال الخلق، ومن الحياة والتدبير، ومن الموت، وانتصار المرسلين وانهزام الأعداء، وانتصار رسوله صلى الله عليه وسلم، وفتح البلدان، وإقبال الناس على الإيمان والتصديق، والعناية بالقرآن، فجميعها تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلى عظيم حكمته وعظيم صنعه.

وفي هذا التوجيه الكريم من التأمل في أنفسهم وفيما يدب على الأرض، وقبلها السماوات والأرض، فإن في ذلك توجيه للمُخَاطَبين إلى أن يتبصروا في أنفسهم وفيما حولهم، ليروا أن الله تعالى هو صاحب القوة التي هي أشد من قوتهم، والتي لا تضاهيها قوة. فهو الذي منح غيره من المخلوقات من القوة ما تستعين بها على قضاء حوائجها، وعلى أداء الحق، وليس للبطر على الحق ومعاندته ومحاربته، وإنكاره.

ثم ينتقل السياق العظيم إلى لفت انتباه الْمُخَاطَبين في تدرج بديع إلى تغاير الليل والنهار، وما ينزل من السماء من المطر، فتحيا به الأرض الميتة بعد جفافها. فقال تعالى ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ إن في اختلاف الليل وتغايره مع النهار، وما ينزل من المطر على الأرض، فترتوي به بعد جفافها، ثم تنبت به الزرع والأعشاب، فتحيا بعد موتها بالجفاف لدلائل للعقلاء على ربوبية الله تعالى، وألوهيته، ووحدانيته، وعظيم قدرته، وأنه يحي ويميت، وأنه يبعث من في القبور كما اخبركم به سبحانه وتعالى، وأوضحه لكم رسوله صلى الله عليه وسلم.

وبدأ البيان الكريم بالليل والنهار، فقال تعالى ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ففي تعاقب الليل والنهار آية، كما أن في اختلاف صورة وشكل الليل عن النهار آية أخرى عظيمة، وفي السياق لفت الانتباه إلى جميع أوجه الاختلاف بين الليل والنهار، من حيث البرودة والحرارة، والظلمة والنور، والطول والقصر، وولوج الليل في النهار، وولوج النهار في الليل، وما يمكن أن يكون في النهار، وما يمكن أن يكون في الليل من حالات سعي العباد، ومن النوم، والكسب، وما يظهر في الليل من النجوم، واختفاؤها في النهار، وظهور الظلال في النهار، بأطوالها ومساحاتها، وتقلصها في الظهيرة حتى يصبح ظل كل شيء تحته، ثم تَمَدُّدُهَا في الاتجاه الشرقي حتى يغطيها الليل بسواده وهجعته، فإنها آيات دالة على عظمة الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى العلاقة بين حياة الأرض وما ينزل من السماء من المطر، وما يكون به الرزق الوفير للعباد. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فربكم هو الذي أنزل الماء الذي ارتفعت واعتلت به السحب في السماء، لأن كل ما ارتفع فقد سما، وقد سماه تبارك وتعالى بالرزق ﴿ مِن رِّزْقٍ ﴾ لأنه سبب الحياة، وسبب الأرزاق كلها، فبنزوله يحصل لكم رزق الشرب، ورزق الأكل، ورزق دوابكم، ورزق المال بالتجارة ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فانتعشت به الأرض، ودبت فيها الحياة بعد أن كانت جافة ميتة.

وقد ورد البيان الكريم بحصر إنزال المطر في مشيئته وقدرته وإرادته سبحانه وتعالى ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ ﴾ فنسب الإنزال له سبحانه وتعالى. فهو الذي أنزل من السماء ماء، لا غيره يُنَزِّلُهُ. فيقرر سبحانه وتعالى لعباده حصر إنزال المطر في مشيئته وقدرته وإرادته، فيتبين للمخاطبين أنه لا معبود بحق إلا من أنزل لكم الماء من السماء، وأغاثكم به تبارك وتعالى. ثم أخبر عَزَّ وجل بعظيم امتنانه عليهم، ورحمته بعباده، بأن جعل بهذا المطر حصول الرزق ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ ﴾ وأورد الرزق عاماً، ليشمل أرزاق

جنس الإنسان والدواب والحشرات، وكل من يعيش على شرب الماء وعلى الأكل مما تنبته الأرض من النبات. فعلى الأصل هو لكم، فأنتم المعنيون به، وإن استفاد منه غيركم من الأنعام والنبات وسائر الكائنات الحية، فإن استفادتها منه عائد لكم، ومن أجلكم. ففي البيان دقة تحرير المقصد، بأقل عبارة، وأعمق معناً ومقصداً، وبأدق وأجمل بيان، فظهر بذلك بلاغة الإعجاز، وبلاغة المعاني، والدلالات من كل وجه، فسبحان الله العظيم، ففي كل شيء له عَزَّ وجل آية وحجة بالغة.

ثم ذكر تبارك وتعالى إحياء لأرض بعد موتها بهذا الماء الذي أسماه سبحانه وتعالى بالرزق، فقال تعالى ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فقد ترتب على نعمة إنزال المطر نعمة أخرى، وهي إحياء الأرض بعد موتها بما أخرج وأنبت فيها من الأشجار والأعشاب والحشائش، وما ينتج عن ذلك من الثمار. فحياة الأرض باخضرارها وارتوائها، مع وفرة المياه في جوفها وأوديتها. وقد تضمن البيان العظيم لفت الانتباه إلى الإحياء بعد الجدب ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ تذكيراً وتدقيقاً للفهم والاعتبار، بإحياء الإنسان بعد موته، كما أحيا الأرض بعد موتها.

ومن مظاهر وظواهر البراهين والحجج الموضحة لكمال قدرته وإحسانه على خلقه عَزَّ وجل هو إرساله الرياح التي يتحكم فيها كيف يشاء سبحانه وتعالى ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ والتصريف هو التحكم بتغيير اتجاهها، ونقلها وتقليبها في اتجاهات الأرض المختلفة، بل وتغيير أحوالها من حال إلى حال، بأن تكون باردة، وقد تكون حارة، وقد تكون عاصفة، وقد تكون رحمة، وقد تكون مدمرة، وعذاب، وقد تكون من الشمال، وقد تكون من الجنوب. وقد تكون لواقح للأشجار، وغير ذلك من أوجه التصريف.

والرياح وتصريفها هو شيء من آياته تبارك وتعالى، بل إنها مفردة واحدة من آياته، وهذه المفردة متضمنة للعديد من الآيات الدالة على كمال قدرته عَزَّ وجل، وكذلك عظيم رحمته ولطفه بعباده سبحانه وتعالى، التي تُوجب عليهم أن يقابلوا هذه النعمة وهذه القدرة العظيمة بالطاعة والامتثال، والحمد والشكر، لا أن يُشرِكُوا به غيره من المخلوقات والجمادات، ويعصونه بالمعاصي. فإنه سبحانه وتعالى هو الذي قدر وخلق الرياح التي تسوق السحاب من مكان لآخر، بحسب توجيه الله تعالى لها. فمن دلائل قوله تعالى ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ أنها تحمل معاني ودلالات الخير والنعمة بما تحمله من السحاب المحمل بالأمطار التي ستحل على الأرض بفضله وتدبيره عَزَّ وجل. وورد تصريف الرياح بصيغة الفعل المضارع المستمر، الذي يعطي دلالة الاستمرار والتكرار، وليفيد مع التكرار والاستمرار كثرت تنوع تصريفها بما يشاء سبحانه وتعالى.

ثم يذكر تبارك وتعالى وجه البيان وهدفه وغايته، فيقول عَزَّ وجل ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ إن فيما سبق من الدلائل المذكورة لكم لآيات وعلامات وحجج وبراهين لقوم يعقلون عن الله تعالى حججه وبراهينه،

فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لحجج وبراهين لقوم يعقلون عن الله تعالى حججه وبراهينه عَزَّ وجل. فإن آيات السماوات والأرض، وآيات خلقكم، وما بث في الأرض من الدواب المتنوعة، وفي اختلاف الليل والنهار، وما أنزل من المطر من السماء، وفي إحياء الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح لآيات وحجج وعلامات وبراهين على أن الله تعالى هو رَبَّ كل شيء ومالكه، وأنه هو المتصرف في هذا الكون العظيم، وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

وأن هذا التصريف العجيب والعظيم ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لقوم يرون آيات الله المبثوثة في الكون، والمقروءة من القرآن الكريم، فيستدلون بتعاضدها مع الدلالات الكونية على أنه سبحانه وتعالى هو الذي أنزل الكتاب وأرسل نبيه محمد صلى الله عليه نبياً ورسولاً، ووجوب توحيده عَزَّ وجل، وإفراده بالعبادة، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. وفي هذا التنويه لهم بميزة التعقل ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ إعجاز في الربط والوصل بين ما يرون بأبصارهم وبصائرهم من آيات الله تعالى الكونية، وما يسمعون من آيات الله تعالى المتلوة من القرآن العظيم، وما يحسونه بحواسهم المختلفة. ليدل على دقة البيان، وإعجاز سياق القرآن العظيم، وإعجاز مضمونه، الدال على أنه كلام الله تعالى بلا شك ولا ريب.

وكلمة ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ تدل على الإدراك لما يُقال، واستيعابه حتى يحصل به التعقل بمضمونه، فهو دلالة على الاستجابة والتفاعل مع ما تدركه الأبصار والبصائر، وتسمعه الآذان، وتحسه الحواس. وكونه بصيغة الفعل المضارع فإنه يدل على الاستمرار في التفكر والتأمل والاستماع حتى يستوفي العاقل ما سمع من الكلام وما أدركته الحواس، فأيقنه قلبه على علم وبصيرة. فإنها دقة في السياق والبيان، بما يؤكد أنه كلام رب العالمين، وأنه منزه من أن يكون كلام أحد من العالمين.

وفي قوله تعالى ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ إشارة إلى جميع ما سبق من البيان في هذا الشأن بأنه محل تفكر وتأمل استدلالي على أن الذي دبر هذا التدبير هو الذي أنزل هذا الكتاب، وهو الذي أرسل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم للعباد، وهو الذي اختاره واصطفاه لهذه الرسالة العظيمة. وفي ورود الجمع للآيات ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ ما يدل على الكثرة والتنوع للآيات الكونية المتعددة، والتي قد توحدت واجتمعت وتظافرت في الحجة والدليل لقوم يعقلون، بأن الله تعالى هو الخالق لهذا الكون، وهو رب كل شيء ومالكه والمتصرف فيه، وأنه لا شريك له في ملكه. وأنه القادر على بعث من يموت، وأن البعث حق، والحساب والجزاء حق، وأن الجنة والنار حق، لا ريب في جميع ما ورد عن الله سبحانه وتعالى.

فهذه الدلائل من الحجج والبراهين لقوم وأناس يدركون الحجج التي تضعهم أمام الحق، فيعقلونها فيستجيبون لها. بما يفيد إن كنتم أهل عقول سليمة، وتريدون الحق، فقد كشفنا لكم الحقيقة التي تُبطل الشرك من أساسه، وإن كنتم لا تريدون التعقل فذلك شأنكم. فإن الغاية من تذكير الناس بتلك الآيات هو ليحققوا بها في أنفسهم ما تتجلى به الحقيقة التي تُوصلهم إلى طاعة الله تعالى، وإلى ما ينفعهم، باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام، والكفر بالشرك، والإيمان بتوحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وفق ما شرع، وبينه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فمنزلة ومراد التذكير بالآيات التي يعرضها ويبينها سبحانه وتعالى للناس هي لِتُجَلِّي الحقيقة، وتزيل عن العقول ما يُعتمها ويغشاها من غبش الجهل، وما تُوصلهم إليه تلك الآيات من الحقائق والمعاني في أدق بيان وأوضح صورة، فيتعظوا ويعتبروا بها. لأن في التأمل والتفكر في آيات الله تعالى ما ينبه للحقيقة بأقوى الأدلة وأميزها. مما يفيد أهمية التأمل والتفكر وأهمية الاتعاظ مما يرى ويشاهد الإنسان من آيات الله تعالى، وأن يحذر من ذلك اليوم، فقد أبان الله تعالى لعباده الحقائق والأدلة المتنوعة في الكون وفي القرآن الكريم، حتى قامت الحجة والبراهين منه عَزَّ وجل على عباده.

ومن الفوائد الإجرائية في الاستدلال: التدرج في البيان. ابتداء من خلق السماء والأرض، وما حوته من الأجرام العظيمة، ثم إلى آيات خلقكم، وما بث في الأرض من الدواب المتنوعة، وفي اختلاف الليل والنهار، وما أنزل من المطر من السماء، وفي إحياء الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح، ليدل ذلك على أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق الإنسان، إذ قدم سبحانه وتعالى خلقها على خلق الإنسان. وهذا التدرج يبين دقة الأسلوب في نقل المعرفة والإفهام للمُخَاطَبين، كما أن جميع ما سبق من البيان هو استدلال على ألوهيته وربوبيته سبحانه وتعالى، وأنه المستحق للطاعة وما يتبعها من فروع العبادة، ووجوب الحمد، لأن في حمد العبد لربه جَلَّ شأنه اعتراف له عَزَّ وجل بجميع النعم، واعتراف له بالعبودية والربوبية والألوهية.

ثم يبين الله تعالى مغزى وغاية وهدف بيان تلك الآيات من الحجج والبراهين، فيقول تبارك وتعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ فهذه الآيات التي ذكرناها وبيناها لك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم هي حجج الله جَلَّ جلاله وبراهينه ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ نتلوها عليك بالصدق الذي لا باطل فيه أبداً. بما يفيد صدق هذا القرآن العظيم، بما اشتمل عليه من الأدلة والبراهين. وبالتالي فإن فيها ما يُثْبِتُ نبوتك. فتلك آيات الله التي أنزلناها إليك نتلوها عليك بما ينزل به جبريل على الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي، بأنها تأتيك ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بالصدق الذي لا شك ولا مراء فيه.

ومن غزارة البيان الكريم وقوة بلاغته البيانية أن بدأت الآية العظيمة باسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ لتفيد الاستقصاء لجميع الآيات الكونية المذكورة، مع التعظيم لشأنها ومنزلتها. ثم أضاف سبحانه وتعالى الآيات إليه عَزَّ

وجل ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ لتعظيمها، مع بيان حقيقتها، بأنها حجج الله سبحانه وتعالى التي تُلِيت عليك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم أَسْنَد التلاوة منه عَزَّ وجل مباشرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ وذلك على الأصل من أنها من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، دون ذكر الناقل لها، وهو جبريل عليه السلام، على اعتبار أن جبريل عليه السلام ما هو إلا رسول الله من السماء إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام بما أوحاه إليه. وفي هذا قوة التزكية لجبريل عليه السلام. وقد أفاد هذا الإسناد تعظيم منزلة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتعظيم السند، وقوة التزكية لجبريل عليه السلام، بأنه تلاه على الرسول صلى الله عليه وسلم كما تلاه الله سبحانه وتعالى عليه. كما أفاد ذلك العناية والشرف العظيم والمنزلة الكريمة لآيات الله تعالى، التي هي آيات القرآن الكريم. وزاد تعظيمها بتزكيتها أنها ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: أنها لا باطل فيها، وبالتالي فإنها محفوظة من أن يدخلها ما ليس منها، فهي محفوظة من أن ينالها التغيير والباطل. فهذه الدقائق تبين قوة وعظمة نظم القرآن الكريم، وغزارة دلالته وبلاغته وقوة معانيه، ودقته التي بلغت كمال الغاية.

ثم يذكر جَلَّ في علاه حال الناس مع قوة هذه الحجج والبراهين من الآيات، وذلك بسؤال استنكار لكل من لم يؤمن بها ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ فمن لم يؤمن بهذه الحجج والبراهين، فبأي حجج سيؤمن ويصدق هذا الكافر الجاحد؟ بما يدل على قوة هذه الحجج التي ليس بعدها أقوى وأدل منها. وكذلك استدلال على قوة عناد من عاند وكفر. فَقَد وَجَّه اللهُ تعالى سؤال استفهام، يفيد التقريع والتوبيخ نحو عناد من لم يؤمن بهذه الحجج والبراهين التي ساقها الله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ فما هو الحديث، وما هي الآيات التي يريدونها ليؤمنوا؟ إنه تعجب من أمرهم وحالهم. فبأي حديث يؤمنون بعد هذا الذي سقناه لهم من الحجج والبراهين العظيمة؟ مما يفيد أن التفكر في الآيات وتأملها يدفع بالإنسان إلى التصديق والإيمان وإلى اللحاق بركب أهل الخير، والبعد عن المعاصي، وعن شهوات الدنيا وغرورها وزخرفها. وأن في تجاهل الآيات ما يجعل المرء يتعالى ويتكبر أمام مغريات الدنيا، وغرور النفس، وتزيين الشيطان سوء العمل. فهذه الدلائل من الحجج والبراهين تستوجب الإيمان والتصديق. وبالتالي كيف ينحرفون عنها؟ بما يُثْبِت أن انحرافهم ما هو إلا عناد وكبر، وأنهم أيقنوا في نفوسهم بالحق. فنسأل الله تعالى العافية والعفو والهدية والثبات على الحق والتوفيق، وحسن الخاتمة.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى

عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

بعد أن ساق تبارك وتعالى العديد من الحجج والبراهين من آياته في خلقه، وأوضح تبارك وتعالى عناد المعاندين بتكذيبهم لِمَا نزل من الحق الواضح المبين بالحجج والبراهين، يتوعد سبحانه وتعالى بالهلاك لكل كذاب أثيم، فقال عزَّ وجل ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي: الهلاك، وشدة العذاب ﴿ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ لكل من اتصف بهذه الصفات القبيحة من التكذيب بما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، مرتكباً للفجور حتى أصبحت صفة له. فقد أفادت دلالة ﴿ أَفَّاكٍ ﴾ المبالغة في الاتصاف بكثرة الكذب، حتى أصبح سمة وصفة له من كثرة افتراءاته الكذب، كما أفادت دلالة ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الإثم، لكثرة فجوره، بكثرة المعاصي والذنوب. وهما صفتان تفيد المبالغة في صد الحق، والافتراء على الحق بالكذب والتنكير والإنكار له، ورميه بما ليس فيه من البهتان المبين، وتواصلهم في ارتكاب الآثام إلى درجة الغلو والمبالغة فيها، فليس هناك ما يمنعهم من التوغل في المعاصي.

ثم يزداد الوصف لحال هؤلاء الموعودين بالويل، فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فويل لكل كذاب أثيم يسمع آيات الله تعالى وهي تُتلى عليه، ثم يصر على تكذيبه بالاستكبار، وكأنه لم يسمع تلك الآيات من كتاب الله تعالى حين تُتلى عليه، فلهؤلاء البشارة بالعذاب الأليم. وقد ورد السمع بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي: قد تكرر سماعه لها، بما يفيد تيقن منها، وقامة عليه الحجة بها. بل ووردت كذلك تلاوة الآيات بنفس صيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي: تكررت تلاوتها عليه، بما يفيد أنه سمعها مراراً وتكراراً، وهي تُتلى عليه مرة بعد مرة. حتى حصل له الفهم بها، والوعظ المقصود منها.

وقد تَلَى حرف ﴿ ثُمَّ ﴾ ذلك البيان من الاستماع لآيات الله تعالى وهي تتلى عليه، وهو حرف يفيد الترتيب، أي: أنه بعد كل مرة يسمع آيات القرآن تتلى عليه ﴿ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾ يصر على استكباره مرة بعد مرة، بما يفيد أنه تيقن من الآيات، وقامت عليه الحجة، وأن امتناعه كان بسبب استكباره، فلم يكن متواضعاً للحق بقبوله، والإذعان له. بل ورد إصراره أيضاً بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ يُصِرُّ ﴾ ليفيد تكرار الإصرار مرة بعد مرة، مع تعاقب هذا الإصرار في كل مرة يسمع فيها آيات القرآن العظيم. بما يعطي الجزم في

الإصرار الذي يتحقق به المبالغة في العناد، والذي سببه الاستكبار. بل بلغ به الأمر أنه ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ كأنه لم يسمع شيئاً من آيات القرآن العظيم. وهذه زيادة أخرى في المبالغة لعناده. فقد بالغ في كفره، وتكذيبه بالحق، وارتكاب الإثم الذي يستوجب العقاب. فهذا العنيد المكابر ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أخبره بأن له من الله تعالى العذاب الشديد في ألمه وقوته. وقد وردت البشارة بالعذاب ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ من باب التهكم والسخرية به، كما سخر بآيات الله تعالى، وصد عنها بقوة من الاستكبار والنفور.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى عن حال هذا المستكبر حين يعلم بشيئاً من آيات الله سبحانه وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ فإذا تحقق له العلم والإدراك الكامل بشيء من آيات الله تعالى ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ استعمل فيها الاستهزاء والسخرية، فأصبح يحملها على محامل الاستهزاء والسخرية والتندر، استصغاراً وتجاهلاً لها من قوة استكباره وعناده ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ فلهؤلاء بسبب ما فعلوه من قبيح التعامل مع آيات ربهم تبارك وتعالى ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لهم عذاب من الله تعالى يذلهم ويهينهم ويكسر كبرياءهم. فَيُهانُون بذلك العذاب أشد إهانة. فيجتمع عليهم العذاب الجسدي مع العذاب النفسي من الإهانة. ولم يحدد موعد عذابهم هذا، ليكون أكثر تخويفاً، وأقوى تهديداً لهم، فقد يجمع الله تعالى لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. مما يفيد عليكم بالحذر من ذلك العذاب المهين بتدارك شأنكم في الدنيا، بالطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. وهذا من فضل الله تعالى ورحمته أن أوضح للناس الحقائق قبل تحصيلها، لعلهم يهتدون، حتى إذا أخذ العبد، أخذه بما يستحق مما كان منه. فلا يظلم ربك أحداً من العباد.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بما ينالهم من العذاب في الآخرة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وزيادة على ما سينالهم من عذاب الدنيا فإن أمامهم عذاب جهنم. وتعني دلالة ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ ﴾ أي: من أمامهم، مما هم مقبلون عليه. فالذي أمامهم من الشأن والأمر الْمُقْبِل عليهم بعد دنياهم، وحصول موتهم عذاب ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ وهي النار المستعرة المتوقدة، وهي اسم من أسماء النار. ونعوذ بالله من العذاب، ونسأل الله تعالى السلامة والعافية.

ثم يخبر الله تعالى عن عدم انتفاعهم بجميع ما اكتسبوا في الدنيا من الأموال والأولاد وغيرها من مكاسب الدنيا التي كانوا يتباهون بها، ويستكبرون بها على الحق ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا ﴾ فلا تنفعهم في الآخرة ما جمعوه وتباهوا به، وتعززوا به على الحق من الأموال والأولاد والرئاسة، والأعوان، والخلان ﴿ وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ وكذلك لن ينتفعوا بشيء مما اتخذوا من دون الله تعالى من الآلهة التي عبدوها من دون ربهم عَزَّ وجل. فإنها وبال عليهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فلهم من الله تعالى العذاب المؤلم في وجعه وشدته، بل سماه الله تعالى بالعظيم، ليبين قوته وشدته عليهم.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى لمن أراد السلامة بأن عليه أن يلزم كتاب ربه القرآن العظيم ﴿ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ هذا القرآن هدى لمن أراد الاهتداء بالحق والنجاة في الدنيا والآخرة، وقد سَمَّى الله تبارك وتعالى القرآن بالهدى ﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ لأنه كتاب هداية لمن تمسك به، فيوصله إلى خير الدنيا والآخرة. ثم يضع تبارك وتعالى الخيار الآخر المضاد للهدى، وهو الكفر ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ وأما الذين كفروا بآيات ربهم، أي: أنكروا القرآن ولم يؤمنوا به، فإن ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ فعذابهم الذي هو لهم ﴿ مِّن رِّجْزٍ ﴾ أي: العذاب الأشد ألماً وإهانة، فهو أقوى أنواع العذاب، المتصف بأنه ﴿ أَلِيمٌ ﴾ أي: موجع للمُعَذَّب به. ونعوذ بالله من العذاب، ونسأل الله تعالى السلامة والعافية.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

بعد التهديد والوعيد لمن اتخذ آيات الله تعالى هزواً، يخبر الله تعالى عن إنعامه على عموم عباده، بما سخره لهم من مخلوقاته العظيمة، التي تدل على عظمته، وعظمة تدبيره وإنعامه على عباده، مما يستوجب منهم الشكر والطاعة. فيقول تبارك وتعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فمن عظائم خلقه، وقدرته وعظيم تدبيره وجليل إنعامه سبحانه وتعالى عليكم أيها الناس،

أن ربكم هو الذي سخر لكم البحر ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ فمن عظيم إنعامه تطويع البحر لكم على عظمته وقوته، وما فيه من الأمواج العاتية، سخره بتذليله لكم. فمن مفردات التسخير التي لا تُعد ولا تحصى، هي نعمة تسخير البحر لكم من أجل جريان السفن فيه بكم ولكم، ولتحصيل ما فيه من الأرزاق ﴿ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فهناك ثلاث مقاصد كلية عظيمة تنعمون بها من خلال تطويع ربكم البحر لكم.

أحدها ﴿ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ لتجري فيه السفن التي تعبر البحار، وتنقلكم، وتنقل متاعكم وتجارتكم. فإن من أوجه التسخير أن السفن التي تحملكم وتحمل أمتعتكم وتجارتكم لا تسير في البحر السير الخفيف فقط، بل ﴿ لِتَجْرِىَ ﴾ في البحر، بما يحقق لكم سرعة الانتقال، وتخفيف المشقة، فلولا هذا التسخير مع نعمة الجريان في البحر لأصبح التنقل عليكم شاقاً، وربما انعدم عليكم تحقيق الكثير من مصالحكم، ولما استطعتم عليه إلا بشق الأنفس. وهذا الجريان ليس بأمركم ومشيئتكم الكونية، بل ﴿ بِأَمْرِهِۦ ﴾ سبحانه وتعالى، بما يفيد أن جميع التسخير كان بأمره وقدرته جَلَّ جلاله، فذلل لكم البحر بأمره، وجعل لكم هبوب الرياح سبباً لجريان السفن بأمره، وهداكم لصناعة الفلك بأمره وهديه وتوفيقه. مما يُوجب عليكم التفكر والتأمل الذي يتحقق به توحيد ربكم وطاعته، والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بالمقصد الثاني: وهو ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فإن من مفردات آياته في جريان الفلك بأمره هو: لِتُحَصِّلُوا أرزاقكم بهذه السفن التي تجري بها الرياح في البحر نحو مبتغاكم من طلب الرزق، وانتقالكم من بلد لآخر، بما تتاجرون به من الأرزاق. وجميع أنواع ما تتطلبون كصيد الأسماك، واستخراج اللؤلؤ والمرجان، فكل ذلك هو من فضله تبارك وتعالى. فجمعت ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ كل ما يحصل عليه الإنسان من الخير، فهو من فضله تبارك وتعالى، مما يُوجب على الإنسان أن ينسب كل خير يُحَصّله إلى ربه سبحانه وتعالى، الذي تفضل بما أعطى ومنح. كما يفيد ذلك البيان بأن لا تتباهى يا أيها الإنسان وتتكبر وتتعالى بما حَصَّلت، فإنه بفضل الله تعالى، وكذلك بأن لا يحسد أحدٌ أحداً، لأن جميع ما تحصلون عليه من الأرزاق هو من فضل الله تعالى. فهو بيان يربي في المؤمن خصال الخير، وأفضل أنواع الفهم وأحسنه، ويعلمه العلم بمجريات الأرزاق، وبآيات الله تعالى، الدالة على عظمته من كل وجه، فله سبحانه وتعالى الحمد والثناء الحسن والشكر.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بالمقصد الثالث والغاية العظمى من ذلك التسخير وذلك الإنعام العظيم، وهو ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فهذا الإنعام والفضل لكي تحمدوا ربكم وتشكروه على هذا العطاء من الفضل. والشكر

يكون لفظاً باللسان، واعتقاداً بالقلب، بأن جميع أنواع الرزق هو هبة من الله تعالى، وكذلك يكون الشكر بالطاعة والعمل بالصالحات، والامتثال لله تعالى بما أمر، والانتهاء عما نهى عنه، فهو الذي أنعم ورزق. مما يوضح للمؤمن بأن إنعام الله تعالى غايته الشكر والحمد والثناء على الله تعالى بما أعطى وأنعم، وأن يستخدمه في طاعته عَزَّ وجل، وأن يمتثل لربه بمتابعة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم. فإنها مدرسة الإيمان والخير والعبودية والتواضع والشكر للمنعم عَزَّ وجل.

ثم يتوجه البيان في تدرج متتالي من خصوصية التسخير الخاص بالبحر إلى نعمة عموم التسخير، بأن سخر لكم أيها العباد جميع ما في السماوات والأرض. فقال تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فربكم طَوَّع لكم جميع ما في السماوات وما في الأرض. فجمع قوله تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ جميع أنواع الانتفاع بكل ما ارتفع في السماء عن الأرض، فقد سخره لخدمتكم وانتفاعكم به. فالشمس والقمر ضياء، والكواكب من النجوم وغيرها لتعرفوا بها الاتجاهات، وأوقات وساعات الليل، ومواقيت الزروع والاتجاهات وغيرها، كما أن في تسخير الرياح ما تحمله لكم من السحاب، وغير ذلك من الفوائد التي لا تُعد ولا تُحصى من كثرتها.

وكذلك سخر لكم ﴿ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فطوع لكم الأرض التي تمشون عليها، وتبنون وتشيدون عليها منازلكم، ومساجدكم، ومصانعكم، وتزرعون فيها، وتسقون منها، وتستخرجون ما فيها من الذهب والفضة والحديد والنحاس، وغيرها من المعادن والكنوز، وما يدب عليها من الدواب والأنعام. فجميع ذلك التسخير منه سبحانه وتعالى لكم، فأنتم المعنيون بهذا الإنعام ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ فجميع ذلك التسخير منه لكم أيها الناس، لتشكروا ربكم، وتوحدوه وحده لا شريك له، وتنقادوا لما جاءكم به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وقد أفاد قوله تعالى ﴿ لَكُم ﴾ أي: أنتم المعنيون بهذا التسخير، فهو لكم، ومن أجلكم. كما أفاد ﴿ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ العناية بكم، فإن جميع ذلك التسخير ﴿ مِّنْهُ ﴾ لكم، تفضلاً وإكراماً، بما يفيد قوة الامتنان، والعناية بكم أيها الناس. وهذا يلزم منكم شكر ربكم، بكمال طاعته، والامتثال له، وتوحيده، وشكره، وعبادته وفق ما أمر، وألا تعصوه في شيء.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بالغاية والهدف الذي يجب أن تستخلصوه من هذا التدبير وهذا التسخير العظيم، فقال تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن ما تم ذكره لكم لدلائل عظيمة على قدرة الله تعالى، وعلى وحدانية ربكم عَزَّ وجل، وإنها لدلائل وحجج وبراهين بأن الله تعالى هو الذي يسخر، وهو المنعم، وهو المدبر لهذا الكون، وهو الذي يبسط الرزق ويقدر. وما ذكره ليس آية واحدة بل آيات عديدة.

فقد وردت الآيات بصيغة الجمع ﴿ لَأَيَٰتٖ ﴾ لتفيد الكثرة والتعدد، والتنوع، ليبين المبالغة فيما دلت عليه هذه الحجج والبراهين، وبما يثبت أنها أدلة كثير ومتظافرة، ومتعاضدة، يعضد بعضها بعضاً، بما لا يدع مجالاً للشك فيما جاءكم به رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخصص سبحانه وتعالى المنتفعين بها، بأن هذه الآيات ﴿ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لأناس يتأملون، فيتأثرون، فيصدقون فيؤمنون. فمن قوة آياته وكثرتها وتعددها أنها تكفي لأن يعقل بها القوم الكثير، فَيُجمِعُون على التصديق بها من غير اختلاف بينهم، إذ يُقَلِّبُون عقولهم في خلق الله تعالى وتدبيره، فيصدقون ويؤمنون بما تأملوا وتدبروا. لأن من قوة تأثير آياته أن يقبلها ويتأثر بها الجمع الكثير في تظافر وتعاضد، وليس أفراداً قلائل، وذلك لقوة الآيات المبهرة التي لا يختلف عليها القوم من الناس. وبما يفيد أن من لم يقبلها فإن عدم قبوله ناشئ عن عناد واستكبار. مما يفيد أهمية التأمل والتدبر في خلق الله تعالى وتصريفه، فإن ذلك من أقوى عوامل الإيمان وزيادته، كما يفيد ذلك أهمية لفت انتباه المتعلم والموعوظ إلى التأمل في ملكوت وخلق الله تعالى وتدبيره، لينصاع للإيمان، وأما المؤمن فيزداد بذلك إيماناً على إيمانه.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يوجه المؤمنين إلى أن يتجاوزا ويصفحوا عن المشركين فيما نالهم من الأذى، فيتركوا ما يخصهم، ليجزي المشركين بما كسبوا من الإثم في حق المؤمنين، وذلك بما نالوه منهم من الأذى والتعدي، فقال تبارك وتعالى ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ يخاطب الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بفعل الأمر ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أخبر المؤمنين بأمر الله تعالى لهم ﴿ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ أن يعفوا ويتجاوزا عن الذين ليس لهم رجاء ولا تصديق فيما جاءهم من الحق ﴿ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ أي: لا يرجون عاقبة ذنوبهم، ولا ثواباً لصالح الأعمال، فلا يبالون بنقمة الله تعالى، إذ لا يرون لأي عمل يوماً ولا وقتاً يكافؤون فيه، لعدم إيمانهم بالثواب والعقاب من الله تعالى. بما يفيد أن الأمر من الله تعالى لهم هو أن يُقَابِلُوا سيئات أعمال الكافرين وأذيتهم التي يتعاملون بها مع المؤمنين بالتجاوز والصفح.

ثم يذكر تبارك وتعالى الهدف والغاية من ذلك الصفح والتنازل عن الرد عليهم بمثل أعمالهم وأقوالهم.

فيقول تبارك وتعالى ﴿ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ ليجزي هؤلاء المعتدين بما يستحقون من الجزاء المهين، والاقتصاص العظيم، لقاء أعمالهم السيئة التي اكتسبوها واقترفوها. فبكسبهم إثم غيرهم ينالون العقاب العظيم اقتصاصاً للمُعْتَدَى عليهم من المؤمنين. بما يبين عدل الله تعالى، وأنه لا يؤاخذ أحداً إلا بما كسب من الإثم

والكفر وأذية غيره. مما يستوجب أن يتعظ بذلك من كان في عهده صلى الله عليه وسلم، ومن يأتي من بعدهم إلى يوم القيامة.

مما يفيد أن الْمُعْتَدَى عليه سينال حقه، ويقتص الله تعالى له من الظالم للمظلوم. وأن في هذه المعاملة من المؤمنين مع الكافرين ما يزداد به الكفرة إثماً وعذاباً، ويزداد به المؤمن ثواباً. فلن تضيع الحقوق عند الله تعالى. مما يربي في المؤمن الصبر والتريث، والتعامل بالحكمة وفق ما يقتضي الموقف أن يتعامل فيه، مغلباً الصبر في حكمة، وذلك رجاء ما عند الله تعالى.

ثم يُفَنِّد سبحانه وتعالى ثواب من يعامل غيره بصالح الأعمال، وبأخيرها وأحسنها، وجزاء من يعامل غيره بالسوء. فيقول عَزَّ وجل ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ من عمل من عباده بالأعمال الصالحة فإن ثوابها عائد إليه، ومن عمل بالسيئات فإن عقابها ومردودها عائد عليه، لأنكم ستعودون إلى ربكم، فيحاسبكم، ويجزي كل واحد بما له من الحسنات، وما عليه من السيئات، فلن يفوت شيء من أعمالكم أيها الناس، فكل مجزي بما كان منه.

ومن دقائق البيان أن ورد العمل الصالح مطلقاً ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ليستوفي جميع الأعمال الصالحة، من الأفعال والأقوال، والتنازلات بالصفح والتجاوز، ولتشمل كل عمل صالح، كان مع الله تعالى بطاعته، وامتثال أمره، أو ما كان من العبد المؤمن مع غيره من الخلق. فهو مثاب على كل عمل صالح، صغيراً كان أو كبيراً. كما ورد العمل السيء على وجه الإطلاق ﴿ وَمَنْ أَسَآءَ ﴾ لتشمل جميع أنواع الإساءات ومفرداتها، وهي التي يترتب عليها العقوبات، سواء كان في حق الله تعالى، أو حق رسوله صلى الله عليه وسلم، أو في حقوق أياً كان من الخلق.

ثم يذكر سبحانه وتعالى حتمية القضاء والجزاء، وأنه كائن لا محالة ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ ثم بعد انقضاء آجالكم في الدنيا تعودون إلى ربكم، فيحاسبكم، ويقضي بينكم، وينال كل أحد ما يخصه من حقوق، ويُؤخذ منه ما لغيره عنده من الحقوق، فلا تُظلم عند الله تعالى النفوس. بما يفيد العدل في القضاء بالاقتصاص بين العباد. وفي هذا تحذير وترغيب في نفس الوقت، فهو ترغيب للمؤمن في التعامل بالحكمة، وما تقتضيه الأمور من الصبر والتنازل والتسامح بحسب مقتضيات المواقف، وأن يغلب الصفح على أخذ الحق، وأن يغلب السلام على الاقتصاص. وهو تحذير من الظلم، والتعدي، فإن الاقتصاص كائن عند الله تعالى، في الوقت الذي يتمنى الإنسان الحسنة الواحدة.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ
رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ
فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ
﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً
مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يذكر تبارك وتعالى عظيم امتنانه بما أنعم على بني إسرائيل مما لم يحصل لغيرهم في زمانهم، فيقول عزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولقد أنعمنا على بني إسرائيل بأن آتيناهم ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهو: التوراة والإنجيل ﴿ وَٱلْحُكْمَ ﴾ أي: الفهم في الكتاب، بما يتمكنون به من الحكم والقضاء والفصل في شؤن الدنيا، وشؤون دينهم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: الحكم: الفهم في الكتاب. وقيل: الحكم على الناس والقضاء. ومن الفضائل كذلك إيتاءهم ﴿ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ وذلك من وقت يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام[1] فجعل فيهم الكثير من الأنبياء ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ وتفضل الله سبحانه وتعالى عليهم بالأرزاق الوفيرة والكثيرة، من جميع الأنواع. وقد وصفها سبحانه وتعالى بالطيبات، أي: الحلال، وكذلك التي تطيب بها النفس، وتبهج بها وتفرح. فمن ذلك المآكل والمشارب، والدور والمساكن الواسعة الطيبة.

ثم يخبر الله تعالى باصطفائه وتفضيله لبني إسرائيل في زمانهم، فقال تعالى ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولقد فضلنا بني إسرائيل من بين الأمم في زمانهم على معرفة وعلم مِنَّا بهم. وقد ورد مثل ذلك في سورة الدخان. وقال في ذلك ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: لقد اخترنا بني إسرائيل على علم منا بهم، على عالمي أهل زمانهم يومئذ، وذلك زمان موسى عليه الصلاة والسلام. وقال قتادة رحمه الله تعالى: أي: اختيروا

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/١٠٨)

على أهل زمانهم ذلك، ولكل زمان عالم [١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى عن تفسير دلالة الآية الكريمة: لقد اخترناهم، يعني بني إسرائيل، على علم منا بهم، لكثرة الأنبياء منهم ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي: على عالمي زمانهم، بدليل قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وهذا قول قتادة وغيره. فيكون قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ أي: بعد بني إسرائيل[٢] فتكون أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي خير أمة، وبنوا إسرائيل كانوا في زمانهم خير الأمم، إذ هم أتباع يعقوب عليه الصلاة والسلام، وكانوا على دين الله تعالى. فأصبحت أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك هي خير الأمم إلى أن تقوم الساعة. فمن تبع هذا الدين الحنيف دخل في الخيرية. ونسأل الله تعالى أن يجعلنا والمسلمين كذلك كما أمر ربنا وشرع سبحانه وتعالى.

ثم يخبر تبارك وتعالى بمزيد فضله عليهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فزيادة على ما سبق من الإنعام المذكور آنفاً، فلقد أنعم الله تعالى على بني إسرائيل أيضاً بالبينات التي أقام بها الحجة عليهم، حتى أنه من قوتها ووضوحها، أنهم يستدلون بها على الحق من الباطل، والخطأ من الصواب ﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ وقد وردت البينات بصيغة الجمع، الذي يعطي دلالة الكثرة لهذه البينات وتنوعها، لتشمل الحجج والأدلة والبراهين، والحلال والحرام في كل شأن يحتاجون إليه ﴿مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ أي: من الشأن الذي جاءتهم به الرسل، وعلى رأسها كتاب التوراة والإنجيل التي فيها تفاصيل كل ما يحتاجون إليه. وسماه سبحانه وتعالى ﴿مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ ليفيد التعظيم والتبجيل لشأنه، وكذلك يشمل هذا الأمر آيات النبوة، وآيات الفصل والقضاء في الحكم. وأضاف الماوردي رحمه الله تعالى كما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه العلم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وشواهد نبوته عليه الصلاة والسلام[٣] فدل ذلك على كثرة وتنوع ما جاءهم من البينات من الله تعالى.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦/٢١)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٥/١٦)
(٣)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٦/٧)

ثم ذكر تبارك وتعالى موطن اختلافهم بعد هذا الإنعام والتفضل العظيم من ربهم عليهم سبحانه وتعالى، وأقام عليهم الحجة، فقال عزَّ وجل ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ وما تفرق بنوا إسرائيل إلا من بعد نزول الدين عليهم، على أيدي المرسلين، كموسى وعيسى عليهما السلام، وذلك بسبب البغي والتعدي الذي أصبح بينهم. فاستوفى البيان الكريم حالة التفرق والتمزق فيهم ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ فأصبح تفرقهم عن علم. لأن سبب ذلك التفرق هو البغي بينهم، بسبب المنافسة، والتطاول على حب الوجاهة ونحوها، فكانت مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، فما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة. وهو بيان شامل لحالهم، بما يفيد الحذر من هذه الحال التي يجب أن يتعظ بها الناس في عهد الرسول الله صلى الله عليه وسلم، والعهود التي تليه إلى يوم القيامة.

من بلاغة البيان العظيم أنه استوفى كل اختلاف على الحق البائن. فقد سَمَّاه الله سبحانه وتعالى ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ ليشمل فاعلية هذا البغي لكل زمان ولكل مكان. وسواء كان من أحداث الماضي، أو ما كان من المشركين على عهده صلى الله عليه وسلم، وما سيكون مستقبلاً إلى قيام الساعة. وهذا من الإعجاز البياني بأن يستوفي السياق كامل المراد من غير تعارض ولا تضارب. وأفاد كذلك التحذير من الاختلاف، وإفادة أن الأصل التوافق بحصول العلم ووحدة الحق، وليس التشتت والتفرق، ولكن لما أن للنفوس نزغات، وتشوف، وغايات شيطانية؛ تتعارض مع منهج الله تعالى، فإنه يظهر منها البغي بالمخالفة للعلم الصريح، والحق المبين. مما يُعَلِّم ويحذر من تقديم الهوى على نصوص الشريعة، وتقديم العقل على النقل، وتقديم المألوف على الحكم الشرعي.

وقد أفادت دلالة العلم في هذا السياق ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أنه دليل على أن العلم الرباني يجمع المتربين عليه، فيجمع فكرهم، وفهمهم، ووحدتهم، وكلمتهم. كما أفاد ذلك الإيضاح بأن البغي هو سبب الخروج عن الأصل الذي أساسه العلم. وأن تفرقهم كان بسبب البغي والأشر والتطاول بينهم. والتزاحم على المقدمة في الرئاسة ونحوها. وبالتالي ليس بسبب في الدين. ولكن بسبب البغي بينهم، الذي هو التطاول، رغبة في تحقيق حظوظ النفس مما ليس لها، كحب القدمة، والرئاسة، والولاية، فيحصل الظلم والفساد والإفساد المخالف لعلم الشريعة. فالدين نعمة، وعموم العلم نعمة، ولكن تشوف النفس يقودها للخروج عن آداب وأخلاق الدين وقواعده إلى البغي. ليفيد الحذر من ذلك.

ثم يخبر تبارك وتعالى بكمال عدله في القضاء والفصل والحكم بين هؤلاء الذين اختلفوا في الحق بسبب البغي بينهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فإن ربك يا محمد يقضي

بين هؤلاء المختلفين، الذين اختلفوا في الحق بسبب بغيهم وأشرهم. فإن ربك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بينهم بحكمه وقضائه العادل. وتفيد دلالة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أن المعني بالخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم، ويتبعه في ذلك جميع المؤمنين، وكذلك المعنيين بالخطاب وهم بني إسرائيل. فإن ربك يقضي بين هؤلاء المختلفين ذلك اليوم الذي يرجع الناس كلهم إليه ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وهو يوم البعث والحساب والجزاء. فيقضي سبحانه وتعالى بين كل مختلفين على الحق.

ولأهميته حدده وعينه سبحانه وتعالى ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بياناً لتعظيم شأن الاختلاف في الحق. فيقضي بين المختلفين في دينه من بني إسرائيل بحكمه العادل، الذي ينتفي منه الظلم والمحاباة. والمقصور على العدل فقط. لأن حكم الله تعالى مبني على معرفته الدقيقة والشاملة بذلك الاختلاف، فلا يغيب عنه شيء أبداً سبحانه وتعالى، فيشمل الحكم في بني إسرائيل وفي غيرهم ممن اختلفوا في دينه عَزَّ وجل. وبما يفيد التحذير من الاختلاف المحمول على البغي والتعدي، والأشر، ومحبة الانتصار للنفس.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى حال بني إسرائيل من الاختلاف الذي منشأه البغي بينهم، ينتقل البيان الكريم والتوجيه العظيم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، بما يجب عليه وعلى المؤمنين تجاه ما وردهم من الدين القويم. فقال سبحانه وتعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقد جاء ترتيب هذا التوجيه البياني بحرف ﴿ثُمَّ﴾ بعد الانتهاء من شأن ما أنعم الله تعالى به على بني إسرائيل من الكتاب والنبوة والحكم، ثم اختلافهم بعد ذلك الإنعام العظيم، ليفيد بذلك حرف ﴿ثُمَّ﴾ الترتيب الذي انتقل به البيان إلى الأفضل ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ فقد جعلناك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد رُسُل بني إسرائيل على ملة ودين. ووردت الشريعة مفردة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ لتفيد الوحدة والانضباط، فهو منهاج واضح من شأن الدين، وهدى من الأمر، وهي ملة الإسلام. وفي هذا إفراد أمة محمد بشريعة مخصوصة، وإن كانت شريعة الله تعالى واحدة في أصل الدين والتوحيد، والهدف والغاية، ونفي الشرك، وتحقيق العبودية لله تعالى، والحث على مكارم الأخلاق. ولكن الاختلاف يكون في الفروع، كالمناسك، وطريقتها، وكالقبلة، والصلوات، وما خص الأمة بالقرآن، ونحو ذلك من فروع الدين. قال قتادة رحمه الله تعالى: والشريعة: الفرائض، والحدود، والأمر والنهي، فاتبعها[1] وأضاف

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٨٥)

تبارك وتعالى على دلالة الشريعة دلالة الأمر ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ ليفيد: الشأن، الذي هو شأن الدين. لإظهار عظمته وعلوه وتميزه على ما سبق من الشرائع، بعد بيان شريعة بني إسرائيل.

ثم بعد بيان الله تعالى لحقيقة ما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الدين، وعموم شريعته الكريمة العظيمة، يوجه سبحانه وتعالى إلى لزومها باتباعها، فقال عَزَّ وجل ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ فاتبع هذه الشريعة، والزمها، وبالتالي عليكم أيها المؤمنون بلزوم ما ألزمنا به رسولكم. ثم ينهى تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن مجاملة أي أحد في هذا الدين، فقال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا تتبع مراد الكافرين. وقد نعتهم سبحانه وتعالى بأسلوبهم الذي هم عليه، والذي هو اتباع الأهواء ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا تتبع ما تمليه عليهم نفوسهم المنحرفة. لأن اتباع الأهواء، يعني ما تمليه النفوس والشهوات التي يتحركون من خلال دوافعها، فليس لهم حظ في لزوم طاعة الله تعالى. وهذا من دقائق النهي، مع ربطه بعلته، وبأقصر وأدق أسلوب، وأوجز عبارة ولفظ، وأبلغ من أي أسلوب آخر.

ثم بعد أن نعتهم سبحانه وتعالى بصفة اتباع الأهواء، سماهم بما هم عليه من الجهل، بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإن عقولهم خالية من العلم بدين الله تعالى، بسبب سيطرة الأهواء عليهم في آرائهم، وتفكيرهم، فلا يكون منطقهم وآراءهم إلا من مبعث الشهوات والشبهات والجهل. مما يدل على أن تفكير الكفرة مرتكز على الأهواء والجهل بالدين، وأمور الآخرة، وما يتبعه ذلك من الجزاء والحساب.

ثم يزداد التحذير للمؤمنين في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول تبارك وتعالى ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إن هؤلاء الذين لا يعلمون من أهل الأهواء ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لن يدفعوا عنك من عذاب الله تعالى شيئاً، بل إنهم بمطالبتهم اتباع أهواءهم يدفعونك إلى عذاب الله تعالى، ويدفعون عليك عذاب ربك وسخطه. مما يفيد قوة التحذير من مداهنة الكافرين في شأن الدين، فلن يستفيد المؤمن منهم إلا تحقق العذاب في حقه، جزاء المداهنة منه لهم في دين الله تعالى. مما يفيد لا تتنازل عن شيء من دين الله تعالى لأعداء الدين.

ثم يوضح تبارك وتعالى منهج التعاضد بين الظالمين، بما يفيد العلم والتحذير من تظافرهم وتعاضدهم، وأن لا يغتر المؤمن بما يكون بينهم من تلاحم ضد دين الله تعالى، فقال تبارك وتعالى ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فإن هؤلاء الظالمين يناصر بعضهم بعضا، فكل من حاد عن الدين، وحمل العداء والكره

والبغض لهذا الدين فإنه يوالي من يبغض هذا الدين وأهله. وهي الحقيقة التي تُظهر للمؤمنين الحقائق، حتى لا ينخدعوا بأعداء الدين. وقد سماهم الله تعالى بالظالمين، لأنهم ظلموا الحق بتكذيبه وإنكاره، ومخالفين لما استقر في نفوسهم وعقولهم من أن دينك هو دين الله الحق المبين. وبالتالي ظلموا أنفسهم، بأن أوردوها العذاب والهلاك، وكذلك ظلموا غيرهم، ممن اغتر بهم، وطاوعهم طمعاً فيما عندهم.

ثم يخبر سبحانه بخصوصية ولايته، بأنها فقط للمتقين ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي يتولى المتقين، الذين اتصفوا بالتقوى، واجتهدوا في اتقاء ما يُغضب الله تعالى، واجتهدوا في طاعته عَزَّ وجل بالسعي في رضاه، فإنه يتولاهم بهدايتهم، وحفظهم، والعناية بهم، وتأييدهم وتوفيقهم، وبنصرهم، فيخرجهم من كل ظلمة إلى النور والحق المبين، وإلى نور الإسلام في هديه وعقيدته وأخلاقه وتشريعه، ليصل بهم إلى جنات النعيم. وفي هذا أعظم معية، وأقوى ولاية، ونصر وتمكين. مما يعزز إيمان المؤمن، ويعطيه الشجاعة في الثبات على الحق أمام الباطل. مما يُوجب أهمية تعزيز هذه المفاهيم في قلوب المؤمنين، وأن يعتني بها التعليم أشد عناية.

ثم يتدرج البيان من الله تعالى إلى إيضاح عظمة هذا الدين، في نوره وهدايته، وتبصير الناس بكل ما يحتاجون إليه في دار معاشهم ومعادهم، فقال جَلَّ جلاله ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وقد بدأ البيان باسم الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾ والذي تصدر الآية الكريمة، فسبق كلمة البصائر ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ ليفيد تعظيم المشار إليه، وهو القرآن الكريم، الذي شاع تداول لفظه بين الناس، واصبح معروفاً، وكذلك هذا الدين العظيم. فهذا القرآن وهذه الشريعة من الله تعالى بصائر رشد وهداية. فدلالة ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ ﴾ تفيد التبصير، بكشف الحق، وتعرية الباطل. فهي نور يكشف لهم الحق، ويتبدد به ظلام الجهل. وفي نعتها بالبصائر ما يفيد قوة بيانها، فهي بمنزلة الضياء للناس الذي يبدد الظلام ويزيله، فيخرجون به من ظلام الكفر إلى نور الإسلام. مما يدل على قوة حاجة الناس الماسة إلى هذا القرآن الكريم، وهذا الدين العظيم. وأن هذا القرآن وهذا الدين بمنزلة العيون في كشفه وتجليته للحق من الباطل. كما أنها وردت بصيغة الجمع ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ ﴾ لتفيد كثرة ما في هذا القرآن وهذا الدين من التبصير لمسارات الحق، وكشف الضلال والباطل. ليستوعب التبصير بكل خير. بل ومن قوة ما فيه من عظمة وقوة التبصير أن عمم المستفيدين، ليفيد التفخيم والتبجيل ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ ودلالة كلمة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي: لجميع أنواع الناس، مهما تعددت وتباينت لغاتهم، وأجناسهم، وأفكارهم، ودرجات جهلهم. بما يفيد قوة صلاح هذا القرآن وهذا الدين لكل أحد من الناس. فكل من أخذ به فإنه يبصره بالحق ويهديه للفوز بالجنة والنجاة من العذاب. وفي تسمية ما في القرآن بالبصائر، ما يفيد ويدل ويؤكد أن القرآن حجج وبراهين وبيان واضح، وأن الله تعالى قد أظهر فيه الحق وبينه.

ثم تلى ذلك الوصف العظيم وصف آخر، والذي أكد به ما يحقق به الهداية. فإنه ﴿وَهُدًى﴾ أي: يدل ويرشد الإنسان على خير الدنيا والآخرة، ويجنبه الضلال. فيأخذ من يعمل به إلى الحق، ويخرجه من ظلام الكفر إلى نور الإسلام وهديه. فيأخذ بيده إلى الخير والصواب. فَيُبْصِرُ به الإنسانُ الحق والخير والرشاد في الدنيا، وإلى ما يحقق له الفوز في الآخرة.

وكذلك هو ﴿وَرَحْمَةً﴾ فهو رحمة لمن صَدَّق به، فيتحقق لمن اتبعه رحمة الله تعالى به، لأنه يأخذه إلى الأعمال الصالحة التي أمر الله تعالى بها. فيفوز مَن أخذ به بمحبة الله تعالى لهم، وعنايته وتوفيقه، وفوزهم بالجنة في الآخرة. ودلالة الرحمة متضمنة للإحسان والإنعام والإفضال من الله تعالى لمن أخذ بكتابه العظيم، وبهدي الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم، فتتحقق لمن اتبع كتاب الله تعالى الرحمة من الله تعالى من كل وجه. وهي كمال الإحسان

ثم بين تبارك وتعالى أعظم خصيصة يتحصل عليها الإنسان، وهي تحصيل اليقين الموجب للتصديق والإيمان. فقال تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: ينتفع به الموقنون، الذين يصدقون بالحق إذا ظهر لهم. مما يفيد أن الذين يكابرون على الحق، فلا يصدقون به، فإنهم لن ينتفعوا بالآيات والحجج، لأن في نفوسهم استكبار وتعالٍ حتى على الحق. مما يفيد ويبين أهمية التواضع، وأهمية قبول الحق، وأهمية تربية وتعويد النفس على قبول الحق والتواضع له.

وتعني وتفيد ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: قد حققوا في أنفسهم درجة اليقين من التصديق بآيات الله تعالى، فحصل لهم من الإيمان والعمل بما عملوا إلى درجة اليقين، فاندفعوا للرشاد وللإرشاد والنصح بما فيه. بما يفيد أن هذا هو منهج الانتفاع. وأما من كان الاستكبار والشكوك والمرض في قلوبهم، فإن عليهم الاستسلام للحق، وعدم المكابرة، حتى ينتفعوا به. لأن دلائل صدقه تُوجب اليقين. فهو نعمة للموقنين، لما يحصل من الخير والثواب والتوفيق لهم به، فإذا تحقق للمؤمن الهداية والرحمة حَلَّت وحصلت السعادة والطمأنينة والفلاح والتوفيق والنجاح الموصل للنجاة يوم القيامة، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

فمن قوة آياته وكثرتها وتعددها أنها تكفي لأن يعقل بها القوم الكثير، فَيُجمِعُون على التصديق بها من غير اختلاف بينهم، فمن قوة تأثير آياته أن يقبلها ويتأثر بها الجمع الكثير في تظافر وتعاضد، وليس أفراداً قلائل، وذلك لقوة الآيات المبهرة في الهداية إلى الحق، والتي لا يختلف عليها القوم من الناس. وبما يفيد أن من لم يقبلها فإن عدم قبوله ناشئ عن عناد واستكبار. مما يفيد أهمية التأمل والتدبر في خلق الله تعالى وتصريفه، فإن ذلك من أقوى عوامل الإيمان وزيادته، كما يفيد ذلك أهمية لفت انتباه المتعلم والموعوظ إلى التأمل في ملكوت وخلق الله تعالى وتدبيره، لينصاع للإيمان، وأما المؤمن فيزداد إيماناً على إيمانه.

ثم ينتقل البيان الكريم من الله تعالى إلى المقارنة التي تبين وتوضح الفرق في الثواب والجزاء بين المطيع، وبين العاصي. فقال عزَّ وجل ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي: فلا يحسب ويظن ويعتقد أولئك الذين ارتكبوا السيئات أن نساوي بينهم وبين الذين التزموا طاعة ربهم سبحانه وتعالى، فجمعوا بين الإيمان وبين العمل بالصالحات التي هي منهج الله تعالى وشريعته. وقد ورد البيان بصيغة الاستفهام، أي: بسؤال استنكار واستبعاد من أن تكون هناك تسوية بينهم ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ ﴾ أو ﴿ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ فحياة هؤلاء مملوءة بالإيمان والطاعة، وما يلحقهم بذلك من الرحمة والهداية والتوفيق والسكينة النفسية، والمعية والتسديد من الله تعالى لهم، بينما أولئك يعيشون كفاراً، عليهم من ربهم ما يستحقون من البغض والغضب عليهم. ثم هؤلاء يموتون مؤمنين، وما يكون لهم من البشارة بالجنة التي كانوا يوعدون بها، حال الاحتضار، وفي قبورهم، بينما أولئك يموتون وهم كافرون، تتلقاهم ملائكة العذاب بما يستحقون. فشتان ما بين حالهم ومآلهم. ليفيد: اقتضاء الفرق الشاسع بينهما. فلا يمكن أن يساوي الله تعالى بين الفريقين.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى ذلك المحيا من الحياة الطيبة الكريمة في سورة النحل، فقال تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فهؤلاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات يجعلهم الله تعالى بقدرته وإنعامه عليهم يعيشون حياة طيبة، وورد ذلك بصفة العموم، ليستوفي أنواع الطيب كله، في الرزق الحلال، والتوفيق للطاعة، وتحصيل القناعة، وطمأنينة النفس. فتعميمها يدل على كثرتها، وأساسها طمأنينة النفس، وتحصيل العافية والقناعة والرضا.

وأما عند مماتهم قال تعالى في سورة النحل ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فسمى الله تبارك وتعالى المتقين بأطيب الأسماء ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ لتشمل: جميع الصفات الطيبة المباركة، وقد جمع ابن الجوزي رحمه الله أقوال أهل العلم في معناها، بأنها: الإيمان، وطاهرين من الشرك، وأن أفعالهم وأقوالهم زاكية، وكذلك سهولة خروج أرواحهم، فكانت وفاتهم طيبة، وطيبة أنفسهم بالموت، ثقة بالثواب[١] وفي هذا مدح وثناء من الله تعالى على المتقين، وبيان لهيئة موتهم، وأنها تكون على أحسن حال، وأن نفوسهم تطيب بالموت ولا تنزعج منه، لأنها مستبشرة بعظيم الخير من الله تعالى.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٤/٤)

ومن دقائق السياق أن بدأ النص الكريم بسؤال استفهام، وهو ﴿ أَمْ حَسِبَ ﴾ ليقرر به الحقيقة، ويُجَهِّل به ويستنكر على من يظن أن الله تعالى يساوي بين الكافر والمطيع، وأنه يجازي من غير فحص وتمحيص للعباد. وكأنهم يظنون بأن الله تعالى لا يحفظ ويسجل سيئاتهم، ومجازاتهم عليها في الدنيا والآخرة. وفي هذا السؤال التقريري للحقيقة شد الانتباه، ولفت الذهن للحسبان والتوقع والظن الخاطئ. فلا تحسبون يامن أنتم منغمسون في السيئات أن نجعلكم مثل عبادنا المؤمنين الطائعين لنا، وأن تُتركوا هملاً من غير حساب وجزاء، وأنكم تفوتوننا وتخفون علينا. وقد بدأ هذا السؤال الاستنكاري بحرف ﴿ أَمْ ﴾ للانتقال إلى تكذيب ظنهم بالتسوية بينهم وبين غيرهم من الذين آمنوا. لإفادة نفي تحقق ما يظن الكفرة: فلا يحسب هؤلاء أن تكون هناك تسوية بينهم وبين المؤمنين.

ثم يختم تبارك وتعالى الآية بإبطال حكمهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فبئس ما حكموا لأنفسهم به، حين اعتقدوا بظنهم، وما حسبوه في عقولهم وفهمهم وحكمهم الجاهل من أنهم يفوتون عن محاسبة الله تعالى لهم، قياساً على تأجيل الله تعالى لهم العقوبة في الدنيا. فبئس الحكم ما حكموا به لأنفسهم، وحكموا به على ربهم تبارك وتعالى من أنهم يفوتون من العذاب قياساً على تأجيل الله تعالى لهم العقوبة في الدنيا، وعدم المسارعة لهم بها. فإنهم في جهل مركب من الفهم الخاطئ عن الحقيقة الساطعة. فإن الله تعالى حليم على عباده، فلو عجل العقوبة لكل عاصٍ في معصيته لأفنى أكثر الناس، لكثرة معاصيهم، ولكنه حليم ورؤوف رحيم، سبحانه وتعالى، يمهلهم بحكمته، فلعلهم يتوبون، ولعلهم يرجعون.

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾
أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن
يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا
لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟
بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم والبيان العظيم من الله العزيز العليم إلى إظهار عظيم قدرته، بما خلق. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ يوضح البيان الرباني دلائل الألوهية والربوبية، بأنه سبحانه وتعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، وبالتالي هو المالك وهو المهيمن على ما خلق، وليس لأحد شراكة في ملكه، بل الجميع عبيده. وقد

أعطت وأفادت دلالة ﴿ وَخَلَقَ ﴾ الإنشاء والإيجاد والإبداع بما ليس له مثيل، فالخلق إنشاء من العدم، من غير سابق لمثله. فيقرر الله تعالى للعباد أنه هو الذي خلق السماوات والأرض ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فنسب الخلق له، تنبيهاً وتذكيراً للعباد، ليتحقق به الاستدلال، وتصحيح الأفكار والحسبان الخاطئ. وبالتالي فإن كل موجود هو من خلق الله تعالى، فكيف تعبدون مخلوقاً، وتجعلونه شريكاً للخالق. بل ومن دقائق البيان والإيضاح أنه سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ الذي هو ضد العبث، فإن الله تعالى إنما يخلق لحكمة وغاية، وقصد حكيم، فإنه عَزّ وجل مُنَزَّه عن العبث. وهو كمال الحق وتمامه، وامتناع أن يلج إليه الباطل في غايته وأهدافه، أو يتسلل إليه شيء من ذلك، بما يفيد ليس للعبث مكاناً فيما يخلق ويدبر سبحانه وتعالى.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أنه مخترعها ومبدعها، فالذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وهو الذي يجب على العباد طاعته. وقد شمل خلق السماوات كل ما هو مرتفع من الأفلاك والأجرام وغيرها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وشملت الأرض كل ما هو عليها أو خارج على سطحها، أو في داخلها وباطنها. بما يفيد كمال ملكه وكمال قدرته، وسعة وعظمة ما خلق، بما يدل على أن كل شيء عبد له سبحانه وتعالى، وتحت مشيئته وسلطانه، وأنه عَزَّ وجل هو القاهر فوق عباده، مما يلزم طاعته وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والخوف منه، ورجاء ما عنده عَزَّ في علاه.

وقد شملت كلمة ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ العالم العلوي، وشملت ﴿ وَٱلْأَرْضَ ﴾ العالم السفلي، فجمعت دلالتها جميع الخلائق، فأغنتنا عن التفصيل، والتعداد، وهي غاية في الإعجاز البياني. ومن غزارة وقوة المعالجة أن الله تعالى لفت انتباه العباد عامة، والمشركين والكافرين خاصة إلى خلق الكون كله في كلمتين: ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ والتي يدل خلقها على عظمة خالقها، وقوته، ووحدانيته عَزَّ وجل.

وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود، بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة جهل كل جاهل بها. فهو الذي له ما خلق من السماوات والأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. ثم يتدرج البيان التعليمي من العموم والكل إلى ذوات الْمُخَاطَبين ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فانتقل التوجيه الكريم إلى بيان المصير لكل نفس، وما يتبعه من الحساب والجزاء. فكما خلق السماوات والأرض بالحق، الذي هو ضد العبث والباطل، فكذلك خلق الله

تعالى الإنسان بالحق، بدليل المحاسبة والجزاء ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ أي: ولِتُعطَى كل نفس ما تستحق من الجزاء، بناء على ما كان منها في الدنيا، بل من شدة التدقيق أن تم إفراد المحاسبين، فرداً فرداً ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ كل واحدة من الأنفس، من غير تداخل بينهم، فيكون الجزاء ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: بناء على ما حَصَّلَت وجنت في الدنيا، فَتُعطَى كل نفس ما تستحق، وفقاً لتحصيلها في الدنيا، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، فهو اليوم الذي تُستَوفى فيه الأجور والأعمال من الله رب العالمين، كل بحسب ما قدم.

ثم يخبر تبارك وتعالى بكمال عدله، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يُزاد عليهم بذنب، ولا يُنقص من أعمالهم الطيبة بأي شيء، فلا يزيد في عذابهم، ولا يُنقص من ثوابهم. ليستوفي كل أحد حقه وافياً كاملاً، لا يُزاد ولا يُنقص منه. وهذا من عظيم عدل الله سبحانه وتعالى.

ثم يتجه خطاب الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصيغة التعجب ممن اتبع هواه، بأخذه لدينه وفق ما تهواه نفسه وتميل إليه، من غير حجة ولا سند. فقال تبارك وتعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أرأيت أيها النبي أولئك الذين إذا استحسنت أهواؤهم شيئاً من المعبودات فعبدوها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني، وترك الأول[1] فمعبوداتهم وآلهتهم بحسب ما يتخيرونهم لأنفسهم. فهو سؤال تعجب واستنكار على هذه العقول التي جعلت المعبود وفق الهوى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم من ربه تبارك وتعالى بِتَعْجِيبِه من تصرفاتهم الجاهلية، وذلك لمعالجة حرصه عليه الصلاة والسلام على هداية الجميع، وحزنه على من لم يستجب لدعوته صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بأن ضلال هذا الذي اتخذ إلهه هواه كان بإصرار منه، بعد حصول العلم له، وقيام الحجة عليه، فقال عَزَّ وجل ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فقد بلغه العلم بأنه على غير حق، وظهر له الحق بما أرسلنا به الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكنه أصر على الباطل بعد أن تحقق العلم له، وبعد إصراره، فعاقبه الله تعالى في الدنيا بأن ختم على قلبه وحواسه من أن تدرك الحق ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣٢/٣)

بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ أي: فطبع الله تعالى على وسائل التلقي عند هذا المعاند والمصر على شركه، فقال تعالى ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ ﴾ فلا يسمع الحق، بإعراضه عنه، وكذلك ختم الله تعالى على قلبه ﴿ وَقَلْبِهِۦ ﴾ فلا يعقل الهدى بقلبه، فيتدبره ويتأمله. مما يبين أن معقل الخير هو القلب. وكذلك من العقوبة التي نالها في الدنيا هو طمس البصر عن الحق ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ أي: جعل بصره مظلم تجاه رؤية الحق وقبوله. أي: بغطاء يحجب عنه رؤية الحق. مما يبين ويفيد أن الله تعالى قد يعاقب العاصي المصر على المعصية، بأن يطبع على قلبه، جزاء لإصراره، واستخفافه بنهي ربه عَزَّ وجل، ووعده ووعيده. مما يفيد أن سُبُل ووسائل الاهتداء هي السمع والقلب والبصر. وهذا يُوجب على الإنسان أن يبادر للحق، ولا يعاند ربه تبارك وتعالى. لأن من خذله الله تعالى عن قبول سُبُل الرشاد، وطريق الحق، وقبول الحجج، بسبب إصراره فإنه يتعذر عليه الاهتداء.

ثم يقرر تبارك وتعالى استحالة هداية من طَبع اللهُ تعالى عليه، فحجب عنه الهداية. فأورد ذلك بصيغة الاستفهام الاستنكاري، ووعيد لهذا الذي طُبع على سمعه وقلبه وبصره، فهل هناك أحد يستطيع أن ينقذه مما هو فيه من الطبع والختم والمنع، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ سؤال استنكار، ونفي، وتهديد من أن تحل على المصر نقمة الله تعالى عليه. فأفاد البيان: أنه لا أحد يستطيع أن يهدي ويرشد هذا الإنسان الذي حلت به هذه العقوبة من ربه تبارك وتعالى. فهو سؤال ينفي به الله تعالى استطاعة أي أحد على هداية هذا الإنسان. فليس له إلا أن يدعوا الله تعالى، ويلتجئ له بالمسألة والافتقار، لعل الله تعالى أن يرفع عنه ما استحق من العقوبة. مما يبين التحذير من المكابرة والإصرار على المعصية، فإن عقاب الله تعالى شديد، فاحذروه أيها الناس.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى عباده إلى التذكر بالتفكر فيما ساقه لهم من البينات والحجج، فقال عَزَّ وجل ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أليس لكم عقول تفكرون وتتدبرون بها؟ بأن تذكروا هذا التوجيه والبيان من الحجج والبراهين والتوضيح لكم. بما يفيد أن عليكم وواجبكم هو أن تتذكروا وتتفكروا فيما بينه الله تعالى لكم من البينات الواضحات من الحجج والبراهين والأدلة.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بمنهج من اتخذوا آلهتهم بحسب أهوائهم المتقلبة في الباطل، فقال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ فإن مرتكزات فهم هؤلاء المبطلين للحق، التاركين لدين الله تعالى هي أربع مفاهيم خاطئة، فلا حقيقة لهم فيها: المرتكز الأول في مفاهيمهم: هو حصرهم للحياة فيما هم فيه من الحياة الدنيا القصيرة، والزائلة، وكفرهم بالحياة

الآخرة والبعث والحساب والجنة والنار ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ فحصروا الحياة فقط فيما هم فيه من الحياة الدنيا القصيرة، والزائلة ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: ليست هناك حياة غيرها. فنفوا الحياة الآخرة، وقصروا الحياة على الحياة الدنيا فقط. فلم يؤمنوا بأن هناك حياة أخرى، وبالتالي نفوا البعث والحساب والجزاء. وهذا الاستبعاد للحياة الآخرة جعلهم يرتبون عليه إطلاق العنان للنفس وراء شهواتها، بدون ضابط ولا رادع، ولا أمل خارج عن الحياة الدنيا. وهذا الاستبعاد للحياة الآخرة يجعلهم يسيرون في الحياة الدنيا بلا انضباط. لأنهم لا يؤمنون بالدين، ولا بيوم الحساب والجزاء والعقاب. فجعل حياتهم الدنيا مليئة بالعبث، المنافي لكل صلاح، ولكل حق.

وقد وصفوا حالهم في الحياة الدنيا بصفتين ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ أي: يموت بعضنا، ويبقى بعضنا، وتشمل كذلك أننا نموت، ويولد أولادنا، أي: حياة متتابعة، بأن يخلف بعضنا بعضا. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: نموت نحن، ويحيا أبناؤنا بعدنا، فجعلوا حياة أبنائهم بعدهم حياة لهم، لأنهم منهم وبعضهم. فكأنهم بحياتهم أحياء[١] وكأن أولادهم يحملون ذكراهم ومشاهدهم من بعدهم. فهي حياة متتالية بتتابع غيرهم من بعدهم.

المرتكز الثاني: تقرير الفناء الذي لا عودة فيه إلى الحياة ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ فما يفنينا ويميتنا إلا طول الزمن وتتابعه علينا. فجعلوا فاعل الموت وانتهاء الحياة للدهر، الذي هو: الزمن المتتالي، ولم يعزوه إلى لله سبحانه وتعالى. فما يفنينا ويميتنا إلا طول الزمن وتتابعه علينا، فيحدث الموت والفناء لنا. فلا يرون أن الله تعالى هو الذي يميتهم، بل نسبوا الموت والفناء للزمن، من الأيام والسنين. ولم يفكروا فيمن يموت وهو في كمال عافيته، ومن يموت وهو في عمر مبكر، فلو كان الزمن هو الفاعل، لأخذ فقط مَن هَرِم وتهالك جسمه فقط. مما يدل على تكامل الجهل عن الحياة والموت، وإصرارهم على جهلهم المركب الذي هو جهل متتابع، بعضه فوق بعض.

ومنطلق المرتكز الثالث: هو الجهل، فقال تبارك وتعالى عنهم ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ فإن تفسيراتهم ومنطلقاتهم التي اعتمدوا عليها بلا أساس من العلم، بل هي منطلقات وتفسيرات من الجهل. ولذلك أكده تبارك وتعالى بالمرتكز الرابع: الذي هو الاعتماد على التوهم الذي لا قاعدة له ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فجميع أقوالهم وأفكارهم ومعتقداتهم مبنية على التخرص، من غير يقين، ومن غير علم صحيح. مما يبين نعمة الدين، وخطر الجهل، وخطر المفاهيم المبنية على التخرص، والظنون والوهم، وتناقلها بين الناس، ثم التصديق بها، ونكران ما يعارضها من الحق، مع التعصب للفكر الذي معتقداته مبنية على الوهم، ومحاربة الحق الذي يظهر لهم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٩٥)

بالدليل والشواهد والقرائن. مما يبين نعمة هذا الدين العظيم، الذي مرتكزاته قائمة على العلم بالشواهد والأدلة. فنحمد الله تعالى على ذلك، ونشكره حق الشكر.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن منهج مقابلة ومواجهة هؤلاء المكذبين لحجج الله تعالى إذا تُليت عليهم من القرآن الكريم ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإذا تُليت آيات القرآن على هؤلاء المكذبين المنكرين بيوم البعث، فإنهم يقابلونها بالحجج الواهية، إذ لم يجدوا إلا قولهم: أعيدوا لنا من مات من آبائنا السابقين ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ لم تكن لهم حجة غير هذه الحجة الباطلة، التي هي ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فيحتج هؤلاء المنكرين للبعث بعدم عودة من سبقهم ممن مات من الآباء. أي: أرجعوا وأعيدوا لنا آباءنا السابقين لنا بالموت ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإن كنتم صادقين فيما تقولون عن البعث، فأعيدوا لنا من مات. بينما حقيقة البعث أنه لا يحصل في الحياة الدنيا، بل بعد أن يُفني اللهُ سبحانه وتعالى عباده. فهذا الاعتراض منهم هو مجرد احتجاج من غير قاعدة صحيحة، إذ لا يتناسب مع يوم البعث وحقيقته التي وعد الله تعالى بها، والذي عين موعده بأنه يوم القيامة. كما أن هذا المطلب منهم ليس من اختصاص الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا المؤمنين حتى يطالبونهم بأن يأتوا بآبائهم السابقين. فهو مجرد احتجاج من غير قاعدة، ولا مرتكز صحيح، فيطلبون ما يريدون ممن لا يملك.

ثم يخبر ويُعْلِمُ اللهُ تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يجيبهم به. فقال تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يأمر الله عَزَّ وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بفعل الأمر ﴿ قُلِ ﴾ أي: قل يا أيها الرسول للمنكرين بالبعث والحساب والجزاء أن الله تعالى هو الذي أوجدكم ابتداء في الدنيا، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يجمعكم ببعثكم بعد موتكم إلى يوم القيامة التي فيها الحساب ثم الجزاء.

فبدأ البيان الكريم بفعل الأمر ﴿ قُلِ ﴾ مما يبين أنه صلى الله عليه وسلم لا يقول للناس إلا بما يأمره الله تعالى به. وبدأ البيان للمنكرين للبعث بأول استدلال، وهو الإيجاد ﴿ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي أوجدكم في الحياة الدنيا ابتداء، إذ بَثَّ فيكم الحياة بعد أن كنتم لا وجود لكم في الوجود. ليلفت انتباههم إلى نعمة الوجود التي هم عنها غافلون. فالإيجاد دليل على أن هناك من أوجدكم، وهو ربكم سبحانه وتعالى، وبالتالي فإن مَن أوجدكم من العدم دليل على كمال قدرته، وعلى إنعامه عليكم بالوجود والحياة. ثم يؤكد سبحانه

وتعالى بالمزيد من بيان كمال القدرة. فيقول عزَّ وجل ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ ثم بعد الإيجاد لكم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم. حتى أنه لا يستطيع أحد أن يغير موعد موته، أو يتحكم فيه بأي شيء، مهما أوتي من العلم.

وقد ورد الإحياء بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ والذي يدل على استمرار الإيجاد، من خلال تتابع استمرار التناسل بين الناس، وكذلك وردت الإماتة بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ ليفيد استمرار الموت والفناء بالتوازن مع استمرار الإحياء، ليعطي دلالة التعاقب، فهناك تعاقب في الحياة وتعاقب في الموت، إذ هناك من يموت، وهناك من يولد، فهو تعاقب مستمر، بحيث لا تنقطع الحياة إلا يوم القيامة. مما يبين عظيم قدر الله تعالى، وعظيم تدبيره في تناسق الموت مع تجدد الإحياء. وكذلك أوضح هذا البيان قوة ودقة البيان في القرآن العظيم، ليبين ويؤكد إعجازه حتى في سياقه وتراكيب كلامه، وإيضاح حججه وبراهينه.

ثم ينتقل البيان الكريم بحرف الترتيب ﴿ ثُمَّ ﴾ ليعطي دلالة التعاقب المنتظم، بأن المرحلة الثالثة: التي هي: ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ثم بعد موتكم يجمعكم ربكم إلى يوم القيامة الذي لا شك ولا ريب في وقوعه وحدوثه، حيث يتم الحساب والجزاء. ومن دقة البيان أن ورد جمع العباد بصيغة الفعل المضارع المستمر، ليفيد تعاقب الجمع لكم بالموت، حتى تصلوا إلى موعد يوم القيامة، الذي ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي: لا شك في وقوعه أبداً. بما يفيد الإثبات اللازم الذي لا محيد عنه.

ليتبين لهم بالمنطق الصحيح الذي تُقِرُّ به العقول السليمة أن هذا البدء بالخلق، وتعاقب الموت في الناس، مع تعاقب استمرار حياة الناس بالتوالد، لا يمكن إلا أن يكون لهدف وغاية، وأن ليس ذلك خلقاً هملاً، لا غاية من ورائه. وبما يحقق في العقول والأنفس أنه لا رب ولا إله إلا الله تبارك وتعالى، وأن من زعم أنه لا حياة بعد الموت، أو زعم أن لله شريك سبحانه وتعالى فقد افترى كذباً مفتعلاً ومخترعاً. ليدل على قوة الحجة، ودحر افتراء المشركين، وتعليمهم بالأسلوب العقلي اللبيب بأنهم في شركهم مفترون كاذبون.

ومن دقائق السياق، وجمال تراكيب بيانه وألفاظه أن بدأ الله تبارك وتعالى البيان بإثبات الخلق ﴿ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ فلا أحد يقول بأنه خلق نفسه، ولا يقول أنه خُلِق من غير خالق له، وبالتالي أين من تزعمون من الشركاء عن الخلق؟ فيقررهم بأصعب الأشياء، وهي الخلق. ولما أنه بعد الخلق تأتي الحياة، ثم يأتي الموت، جاء الترتيب المتتالي لها بحرف ﴿ ثُمَّ ﴾ الذي يفيد الترتيب والتتالي، بما يفيد النسق العجيب بين الإيجاد وبين العدم بالموت.

ثم تلى ذلك في الترتيب نهاية حياة الفرد ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فهو الذي يميتكم في الساعة التي حددها لكل واحد منكم، فلا أحد يستطيع أن يؤخر موته لحظة واحدة، ولا أحد يقول بأنه يختار ساعة موته، ليقر بأن الله تعالى هو الذي يقرر موته كما قرر خروجه للدنيا. فإنها آية عظيمة فيما ترون ممن يموت أمامكم، ممن يحيط بكم من الخلق. ثم بهذا البيان المتتالي لحياة الإنسان الدَّال على عظيم قدرته عَزَّ وجل، وقدرته على كل شيء ما يعلم به عباده ويذكرهم بالحقائق. ثم يأتي بعد ذلك بيان إعادة الخلق ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ فهي الحياة بالجمع بعد الموت لجميع البشرية، والتي تقرر ثبوت عظمتها في العقول بما سبق من بيان الخلق ثم الموت. يتأكد بها أن ليس هناك ما يمنع من البعث بعد الموت، لأن الذي أنشأ من العدم، يستطيع أن يعيد ما خلق كما كان.

ثم يقرر تبارك وتعالى بأنه يجمع جميع العباد يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الذي يُخرِجُ اللهُ تعالى فيه الناس جميعاً من قبورهم، فيجمع أولهم وآخرهم، من غير استثناء ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فهذا اليوم الذي هو يوم القيامة، فإنه مجزوم بوقوعه، فلا شك ولا مرية فيه. ثم يبين تبارك وتعالى حال أكثر الناس في إيمانهم وعلمهم به، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس غير مؤمنين بيوم القيامة، وما فيه من البعث والحساب، ثم الجزاء. بينما القلة من الناس هم المؤمنون المصدقون به، فيعملون له بما أمر الله تعالى به. ليتبين أن عدد المؤمنين أقل من عدد الكافرين إلى أن تقوم الساعة، وهذا إعجاز كوني وإعجاز بياني، وآية من آيات الله تعالى، يشاهدها الناس في كل زمان. فأغلب الناس هم أهل الكفر. مما يستوجب أن يحمد المؤمن ربه تبارك وتعالى على أن هداه ووفقه، فجعله من القلة المؤمنة، ليفوز بالجنة والنجاة من النار في الآخرة. فنحمد الله تعالى على نعمة الإسلام والإيمان، ونسأل الله تعالى الثبات، وحُسن الخاتمة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾

يؤكد الله تبارك وتعالى كمال ملكه لجميع خلقه، وأنه المتصرف فيه كيف يشاء، فقال سبحانه وتعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ فإن لله تعالى لا شريك له، هو الذي له مُلك السموات والأرض، وليس لغيره فيه شيء، ليتقرر بذلك بطلان الشرك ونفي الشريك، مما

يترتب عليه كمال توحيده وإفراده بالألوهية والربوبية والعبادة. فإن لله سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك كله، وله الخلق كله، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة جهل كل جاهل بها وعنها. فله وحده سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة.

وقد شملت دلالة ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ جميع ما ارتفع لا مما يراه الإنسان ومما غاب عنه فلا يراه. ومن ذلك الأفلاك والأجرام والسحاب وغيرها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وشملت ﴿ وَٱلْأَرْضِ ﴾ كلما هو عليها أو خارج على سطحها، أو بداخلها، مما لا يراه الإنسان. فاستوعبت ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى مما يراه الإنسان ومما قصرت حواسه عن إدراكه ورؤيته، وهذا من عظيم البيان في كلام الرحمن.

فهو سبحانه وتعالى مخترع ومبدع هذا الكون، فالذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة فإنه هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وهو الذي يجب على العباد طاعته. وبما يفيد كمال ملكه وكمال قدرته، وسعة وعظمة ما خلق، والذي دَلَّ على أن كل شيء عبد له، وتحت مشيئته وسلطانه سبحانه وتعالى، وأنه هو القاهر فوق عباده، مما يلزم طاعته وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والخوف منه، ورجاء ما عنده عَزَّ في علاه.

وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود، بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة جهل كل جاهل بها وعنها. فهو الذي له ما خلق من السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. فمن له هذا الملك وله هذه القدرة العظيمة، فلا يُعجزه سبحانه وتعالى بعث العباد، والحساب والجزاء. كما أن مَن هذا ملكه وعظمته، فليس له شريك في هذه العظمة.

وبعد البيان الكريم لخلق وملك السماوات والأرض التي تثير الفكر والتفكر في عظيم قدرة الله تعالى، وإبداعه في خلقه عَزَّ وجل، ينتقل السياق إلى شأن الساعة التي يجب أن يؤمن بها الْمُخَاطَب كثمرة ونتيجة لما سبق من بيان آيات الخلق والملك، وآيات الحجج والبراهين التي تعددت وتنوعت بكثرتها في كتابه العظيم. فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ فحين تقوم الساعة، ويحل لحظة يوم القيامة ﴿ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ حينها يُدرك كل منكر لوقوع الساعة أنه هو الخاسر حقيقة لمكاسب الآخرة، فأصبح مصيره إلى النار. ومن دقائق البيان أن سماهم الله تعالى ﴿ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ لأنهم أبطلوا قيام الساعة، فاعتقدوا الاعتقاد الباطل، بأنه لا بعث بعد الموت، فأنكروا وكذبوا بالساعة والحساب والجزاء. بل ويلحق

بذلك جميع معتقداتهم وأعمالهم الباطلة، من الشرك وغيره. ويدخل في دلالة إنكارهم للساعة إبطال وقوعها. كما تضمنت دلالة الخسارة ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ فوات المغنم والمكسب الذي كان المفروض أن يحصلوا عليه فيما لو أطاعوا وآمنوا وصدقوا وعملوا بالصالحات. ففاتهم المكسب بتحصيل الجنة، واستبدلوه بالخسارة التي جعلت مصيرهم إلى النار. ونعوذ بالله تعالى من الخسران.

ثم يخبر الله تعالى بأحوال الناس يوم القيامة، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يخاطب الله تعالى الناس جميعاً من خلال مخاطبته لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَتَرَىٰ﴾ أي: وتشاهد وتعاين أيها الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة الأمم وهي جاثية، بما يفيد أن كل أحد من الخلق سيشاهد بعينه ما أخبر الله تعالى به، وهو أن يرى ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ أي: كل أهل دين وملة ﴿جَاثِيَةً﴾ أي: جالسين على ركبهم، من قوة ما أصابهم من الذعر والخوف، انتظاراً لحكم الله تعالى فيهم. قال الحسن: جالسة على الركب[1] وفي بيان هيئة جلوسهم أنها ﴿جَاثِيَةً﴾ ما يفيد أن الخوف والترقب جعلهم يجلسون على هيئة التحفز والانتظار لأمر عظيم الشأن، ليتبينوا منه إلى أين يتجهون، وذلك من شدة هول ما يرون.

ووردت هيئة جلوسهم بصيغة المفرد ﴿جَاثِيَةً﴾ ليفيد أنه بالرغم من كثرتهم وتعدد الأمم إلا أنهم متوافقون في الترقب وفي هيئة الجلوس. ليفيد التحذير للعباد من ذلك اليوم، وأن عليهم لزوم طاعة ربهم، قبل أن يكونوا في ذلك الموقف الرهيب.

وأفادت دلالة ﴿وَتَرَىٰ﴾ أن الجميع مكشوفين لبعضهم البعض، ويرون بعضهم بعضا على هيئة تجمعات. كما أفادت دلالة ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ أن الناس يوم القيامة موزعون على شكل مجموعات عظيمة. قال الفراء رحمه الله تعالى: ترى كل أهل دين[2] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: أهل كل ملة[3] وكل مجموعة هي أمة من الأمم التي أرسل فيهم رسول، كما قال تعالى ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا﴾ أي: أن اجتماع وتجمع كل أمة مجتمعة

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٥/١٦)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٨/٧)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٥/١٦)

هو بحسب كتابها الذي أنزله الله تعالى على رسولهم الذي أُرسِل به إليهم. وكذلك يستوعب صحائفهم التي تمثل أعمالهم.

وورد في قوله ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ ثلاث أقوال: أحدها: كتابها الذي فيه حسناتها وسيئاتها، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: كتاب أعمالهم[٢] الثاني أنه: حسابها. قاله الشعبي، والفراء، وابن قتيبة رحمهم الله تعالى. والثالث: كتابها الذي أُنزِل على رسوله. قاله الماوردي رحمه الله تعالى[٣] وذكره القرطبي كأحد الأقوال التي ذكرها: أنه قيل: كتابها المنزل عليها، لينظر هل عملوا بما فيه[٤] وكذلك ذكر الشوكاني رحمه الله تعالى تلك الأقوال الثلاثة[٥] وجميع الأقوال متظافرة، فلا تعارض بينها. فيحصل كل ذلك في ذلك الموقف. كما ورد بيان ذلك في عدد من سور القرآن. فقال تعالى في سورة الإسراء ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾ وقوله تعالى في سورة الكهف ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ وقوله تعالى في سورة الزمر ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ وغير ذلك من الآيات الكريمة الدالة على معاني الكتاب يوم القيامة. مما يدل على سعة دلالة الكتاب ليستوفي مقاصده جميعاً.

ثم يُقال لتلك الأمم ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهذا اليوم هو اليوم الذي تجازون فيه على ما كان منكم من الطاعة والمعصية، فجزاؤكم اليوم هو وفق أعمالكم، وتوافقها أو تعارضها مع كتاب ربكم الذي أنزل فيكم.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٨/٧)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٦٤/٤)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٨/٧)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٦/١٦)

(٥) الشوكاني، فتح القدير (١٠/٥-١١)

بما يفيد أنه لا ظلم لأحد من العباد في هذا اليوم، وأن كل الأعمال تقاس على شريعة الله تعالى، ويكافأ كل إنسان بما يستحق، فإن أطاع الله تعالى فله الحسنى، وإن أساء فله ما يستحق من العذاب.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال عدله وقضائه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فهذا كتابنا الذي يستحضر جميع أعمالكم من غير نقص ولا زيادة، فينطق عليكم بالحق من غير ظلم لكم ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو أم الكتاب، فيه أعمال بني آدم[1] فهو محفوظ عندنا، أي عند ربنا جَلَّ جلاله. وقد امتنع عنه التغيير والتبديل. ومن صفات هذا الكتاب أنه ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي: يشهد عليكم بالحق الذي لا تنكرونه. ومن بلاغة البيان، وقوة دلالته ومحتواه أن وُصِف الكتاب بالنطق بما فيه من الحق الذي أثبته، فأصبح من دقته أنه يوضح ويُوَثِّق ما كُتِب ووثّق فيه كما ينطق المتكلم ويشهد الشاهد، ويوضح الناطق بما يعرف. قال القرطبي: وقيل: أنهم يقرؤونه، فيذكرهم الكتاب ما عملوا، فكأنه ينطق عليهم، ودليله في سورة الكهف من قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾[2] مما يبين دقة رصد أعمال الإنسان بأدق ما يكون.

ومن دقائق البيان إضافة الكتاب إليه سبحانه وتعالى ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا ﴾ بما يفيد ويدل على عظمته، وتزكيته بالعدل وكمال الصدق، فلسان حاله أنه يقرر عليكم الحق الذي لا يعتريه زيادة ولا نقصان. ومؤكد ذلك يقوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ أي: كنا قد أمرنا الملائكة الحفظة عليكم، بأن تكتبت جميع أعمالكم، فتنسخه كما هو من غير زيادة ولا نقص، فهو ينطق بجميع ما كان منكم. مما يدل على كمال عدل الله تعالى. وفيه تنبيه وتحذير للعباد من أن جميع أعمالهم مرصودة في الكتاب عند الله تعالى، والذي يستلمه كل فرد، إما بيمينه إن كان من المؤمنين، أو بشماله إن كان من الكافرين.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بخصوصية أهل الإيمان الذين آمنوا وعملوا بطاعة ربهم تبارك وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ إن

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/١٠٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/١١٦)

الذين اتصفوا بصفة الإسلام، فجمعوا بين الإيمان وعمل الصالحات، فإن لهم عند ربهم الثواب العظيم، الذي هو ﴿ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ﴾ تبارك وتعالى.

وقد بدأ البيان بحرف ﴿ فَأَمَّا ﴾ لإفادة الفصل والاستثناء من حال أولئك الذين جثوا على ركبهم خوفاً وهلعاً، ولإدخالهم في وصف مغاير ومضاد لتلك الفئة الفاسدة، وقد وصفهم بصفتين عظيمتين كانت لهم في الدنيا. فالصفة الأولى: الإيمان ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فالإيمان هو الأساس والقاعدة الأولى، لما تضمنه من الإقرار بالله تعالى وحده لا شريك له رباً ومعبوداً، وبجميع المرسلين وبالملائكة والكتب واليوم الآخر، وجميع مقتضيات الإيمان. ثم يتعاضد الإيمان مع عمل الصالحات ثانياً ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فيشترك مع الإيمان عمل الصالحات، وهي: أعمال الدين. أي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي بذلك صفة الصلاح جميع شرعه سبحانه وتعالى، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا وفي الآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ حوت منهج الله تعالى بكامله.

فهؤلاء الذين جمعوا بين الإيمان بالتصديق بجميع ما جاء عن الله تعالى وبين العمل بدينه سبحانه وتعالى فإن حالهم يوم القيامة هو دخولهم في رحمة الله تعالى ﴿ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ﴾ أي: يدخلهم الجنة التي يرحم بها الذين اتبعوا المرسلين، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يصف تبارك وتعالى حال مَن نال رحمته بأعظم الأوصاف من الربح العظيم، فقال تبارك وتعالى ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ فأولئك قد حصل لهم الفوز والظفر بأغلى وأنفس أمنية، فكان فوزهم فوزاً ظاهرا بالظفر الذي نالوا فيه أمنيتهم. وفي هذا بيان وتأكيد لملكه وسلطانه سبحانه وتعالى، وكذلك فيه بيان لرحمته، بما يستدفع المخاطب لطاعته، وكذلك فيه اطماع للمخاطب في سؤال ربه عَزَّ وجل رحمته ومغفرته، وأخذ الأسباب لتحصيلها.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ
سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ

ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

بعد أن أخبر سبحانه وتعالى عن حال المؤمنين الذين عملوا الصالحات يخبر عَزَّ وجل بحال الكافرين مقابل حال أهل التقوى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ فيخبر سبحانه وتعالى عن حال الكافرين بأسلوب اللوم والعتاب على ما كان منهم من التفريط في طاعته سبحانه وتعالى، فبدأ بيان حالهم بحرف التفنيد ﴿ وَأَمَّا ﴾ بما يفيد أن لهم حال غير حال المؤمنين، فعينهم بالتخصيص ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ فأما هؤلاء الذين أنكروا دين الله تعالى، وكذبوا بالرسل والكتب ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ سؤال توبيخ، وعتاب. ألم يحصل من المرسلين أن قرأوا عليكم آياتي من الكتب التي أنزلتها عليكم ﴿ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ فتعاليتم على آياتي وعلى المرسلين، وما جاؤوكم به من الحجج والبراهين ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ وكنتم كافرين، فارتكبتم أعظم جُرم. وبالتالي استحققتم عذاب جهنم وبئس المصير.

ثم يذكر سبحانه وتعالى مزيداً مما كان عليه المجرمون في الدنيا، من التكذيب والإنكار بكل ما وعد الله تعالى به، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ وإذا قالت لكم الرسل والمؤمنون ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي: ما وعد الله تعالى به من البعث والحساب والجزاء والجنة والنار بأنها حق لا ريب فيه، وكذلك ﴿ وَٱلسَّاعَةُ ﴾ أي: يوم القيامة، بأنه ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي: لا شك ولا مرية في وقوعها ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي: لا نعلم ولا نفهم هذا الشأن، أي: فأي شيء هي الساعة ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أي: نتوهم توهماً. فلسنا متيقنين منها، بل ما هو إلا وهم وليس بحقيقة ثابتة. ثم أكدوا قولهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ فليس عندنا يقين بذلك، فهو لا يتجاوز الظنون. بما يدل على الاستهزاء بتلك الأمور التي أكدتها الرسل والكتب، بما يعني استبعادهم ليوم القيامة، وليوم البعث، والحساب والجزاء. فكفروا بذلك، فكانوا قوماً مجرمين.

ثم يخبر الله تعالى بما يكون ويظهر لهم يوم القيامة، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فإنه في يوم الحساب تظهر لهم عاقبة ما ارتكبوا من سيئات أعمالهم الباطلة ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ فسيئات ما عملوا هو الكفر والجحود بما أخبر الله تعالى به، فعاينوا وعايشوا سيئات أعمالهم في الدنيا معاينة حقيقية يوم القيامة ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فأحاط ونزل بهم وعليهم جزاء تكذيبهم، وما كانوا يسخرون ويستهزئون به. وهو العذاب المهين.

ثم يُقال لهم تحقيراً وتوبيخاً وإهانة ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ فكما كان حالكم مع دين الله تعالى في الدنيا، من التغافل وعدم المبالاة فكذلك سيكون لكم الجزاء المماثل في الآخرة ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ ﴾ فاليوم نتركم في العذاب المهين ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ كما تركتم العمل لهذا اليوم ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ومنزلكم اليوم الذي تنزلونه هو النار، فإنها داركم وقراركم ومنزلكم الذي تأوون فيه اليوم ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ وليس لكم اليوم من يدافع عنكم ويعينكم على الخروج من عذاب ربكم. وهذا من باب التحقير والتعنيف لهم، جزاء لما كان من موقفهم من دين الله تعالى، بأن كفروا به، وأنكروا البعث والحساب والجزاء.

ثم يزداد التعليل والبيان لأسباب ما هم فيه من العذاب، فقال تعالى ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ فهذا العذاب جزاء لما كان منكم من الاستهزاء بحجج الله تعالى وبراهينه ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ فقد اتخذتم آيات ربكم سخرية. مما يبين أنهم كانوا يستهزئون عندما كانوا يقولون ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ فكان ذلك منهم من باب الاستهزاء والسخرية، وأن سبب استهزائكم هو غروركم بالحياة الدنيا ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وانخدعتم بالحياة الدنيا عندما كنتم فيها، وبما أنتم فيه من الخير والنعيم، ثم يزداد التحقير واللوم لهم ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ فاليوم لا يخرج هؤلاء المجرمون من العذاب ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي: لا يعاتبون على سبيل العودة للدنيا حتى تحصل منهم الطاعة والامتثال. فلا يُطلب منهم الرجوع إلى الدنيا ليمتثلوا بطاعة الله تعالى. لأنه اليوم الذي لا تُقبل فيه

التوبة والمعاذير ولا حتى مخاطبتهم على هذا، بل هو حساب وجزاء. بما يفيد الانتباه لذلك اليوم، وما يجري فيه، فاحذروه بالطاعة والامتثال لشريعة ودين الله تعالى، الذي جاءكم به الرسول صلى الله عليه وسلم. فإن من رحمة الله تعالى بالعباد أن عرض عليهم، وبَصَّرَهم بما سيكون عليه اليوم الآخر. ليأخذ الناس حذرهم، بلزوم طاعة ربهم تبارك وتعالى. فالحمد لله تعالى على بيانه عَزَّ وجل لكل شيء.

ثم يختم الله تبارك وتعالى سورة الجاثية بآيتين عظيمتين، تبين وتوضح جلال الله تعالى، وعظيم سلطانه، وعزته وحكمته، فقال تعالى ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإن الحمد والشكر العظيم لله تعالى ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ ﴾ فله الحمد الذي هو الشكر والثناء، لفظاً واعتقاداً، وعملاً بالدين. وليفيد التخصيص والحصر والقصر بأن الشكر الحقيقي هو لله تعالى ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ فهو رب كل ما ارتفع مما ترون ومما لا ترون، وكذلك ﴿ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ ﴾ فهو رب الأرض، وما عليها، وما حوته مما تعلمون ومما لا تعلمون، ثم عمم ملكه عَزَّ وجل، فقال تبارك وتعالى ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: رب الخلائق أجمعين.

ومن دقائق البيان تكرار لفظ ﴿ رَبِّ ﴾ ثلاث مرات، لتأكيد الربوبية له وحده لا شريك له ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ وكذلك ﴿ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ ﴾ ثم أورده سبحانه وتعالى بصيغة العموم ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لجميع العوالم التي خلقها سبحانه وتعالى. مما يؤكد توحيد الربوبية، وما يتبعها من توحيده وإفراده بالعبادة.

وكذلك لربكم كمال العظمة ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فلربكم ﴿ ٱلْكِبْرِيَآءُ ﴾ أي: العظمة والجلال والهيبة والسلطان الكامل الذي ليس لأحد فيه غيره عَزَّ وجل ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ في كامل الكون، فيما ارتفع من السماء وعلا، وفي الأرض التي أنتم عليها، فليس لأحد شيء من الكبرياء، لأنه ربها، ورب كل شيء ومالكه. فكيف يكون لأحد شيء من الكبر في ملكه، والكل عبد له. مما يبين للإنسان أنه عبد لربه تبارك وتعالى، فليس له الحق في شيء من الكبر والاستعلاء، فواجبه الخضوع والتذلل لربه بكمال الطاعة والانقياد.

ثم أضاف تبارك وتعالى أن له كمال العزة وكمال الحكم والحكمة ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وهو العزيز الذي لا غالب له، وهو الحكيم في كل أفعاله وأقواله، فليس في أمره ونهيه وخلقه شيء من العبث. وقد أفاد قوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أنه الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر

والغلبة والسلطان. بما يفيد أن كل من يريد محاربة دينه وكتابه القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين، فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة.

والصفة الثانية: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير، مما يدل على أن القرآن الكريم كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه. وكذلك دينه وشريعته الغراء.

كما يفيد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

كما يفيد هذا الإعلام بهاتين الصفتين: التحذير أيضاً لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه القرآن العظيم، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولعباده المؤمنين، فإن حكمة الله تعالى في معالجة الأمور تُسقط أهل الشر فيما يدبرون من الشر لدينه وأهل دينه. فإن أمرهم مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيدهم في نحورهم، ووبالاً عليهم.

وقد أكَّد سبحانه وتعالى بأسلوب المبالغة أنه عَزَّ وجل هو العزيز الحكيم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو جَلَّ جلاله العزيز والحكيم لا غيره ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فقد حصر سبحانه وتعالى العزة والحكمة له وحده لا شريك له. وقد أفادت بُنية كلمتي ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في عزته وحكمته. فله العزة المطلقة، وكذلك فإن له الحكمة المطلقة. فمن كانت هذه صفاته العظيمة، فإنه يستوجب من عباده الرهبة من عزته وقوته وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الإذعان لكمال حكمته، سواء عَلِمَ بها العبد أو لم يعلمها. وكذلك الرغبة في رحمته التي منها إنزال الكتاب، القرآن العظيم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هداية وحجة لمن يصدق ويؤمن به. فالحمد والشكر على نعمائه سبحانه وتعالى.

تم بحمد الله وفضله إتمام سورة الجاثية، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.